صيَّاد الملائكة

رواية

هدرا جرجس

obeikan.com

الكتـــــــــاب: صياد الملائكة

المــؤلــــــف: هدرا جرجس

تصميم الغـــلاف: أحمد الصباغ

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 2015 / 25723

الترقيــم الدولــي: 3 - 054 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة.

هاتف: 0223952354 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

صيَّاد الملائكة

رواية

هدرا جرجس

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

إلي

جيهان وكاراس

obeikan.com

obeikan.com

صدفة..

هذا كل ما في الأمر، قابلها اليوم بالصدفة، فهي مجرد زبونة، دخلت إلي دكان صاحبه منصور، في وقت كان موجودًا فيه بالصدفة، كان يتفرج علي التلفزيون القديم، الذي ركب له منصور وصلة أتاحت له التقاط عشرين قناة إضافية، واحدة من هذه القنوات، كانت تعرض برنامجًا مؤثرًا عن الأعاجيب التي تحدث في عالمنا هذا، وكان يشاهده، هو ومنصور، وفجأة، دخلت البنت.

وجدها تقف قدامه بالنقاب والإسدال السوداء الفضفاضة، وهذا لا يعني له شيئًا، وإذا كانت عند دخولها قد شغلت حيز تفكيره للحظة، لحظة صغيرة وخاطفة، فهذا من دواعي الفضول والمفاجأة، ولا يمت إطلاقًا لموقف ما تجاه هذه النوعية من الملابس، فهو لا يهتم بمثل هذه الأمور، وفي الواقع، هو لا يهتم بأية أمور من الأصل.

obeikan.com

نظر إليها، لحظة خاطفة، ثم عاد بعدها إلي التلفزيون، وفي الوقت الذي بدأت فيه البنت ممارسة مهامها كزبونة، بأن شملت الفتارين والأرفف بنظرة فاحصة، كان هو يحملق في الشاشة المضيئة بألوانها المهتزة، وكانت المشاعر قد عادت في داخله تضطرب من جديد، بين حزن وقرف وأسي ولوعة، فالمشهد الذي راح التلفزيون يعيد بثه مرارًا، وبالعرض البطئ غالبًا، كان مدهشًا، أسد يأكل بني آدم، يلتهمه التهاما مؤثرًا، يقبض بفكيه علي رقبة المسكين، فتختلط التأوهات بالزمجرة بصرخات فزع آتية من بعيد، وكانت الكاميرا في يد المصور تهتز، فيهتز الكادر المزعج كأنه حلم.

كان التلفزيون أمامهما موضوعًا علي أحد الأرفف، بين زجاجات العطور والشامبوهات وكريمات البشرة والشعر، وفي أول الأمر، لم يكن هو، أو منصور، يهتما بما يبثه، أغاني، إعلانات، حفلات رقص علي الشواطئ، مجرد ونسة صوتية لا أكثر، انشغلا عنها بالكلام، كان يقول لصاحبه منصور أنه بدأ مؤخرًا في كتابة قصة، استنسخ تفاصيلها من حلم قديم، وربما من شعور حقيقي، ولكنه غامض، بدأ ينتابه أحيانًا، وراح يحكي ..

obeikan.com

وقبل أن ينتهي من سرد تفاصيل القصة، فوجئ بمنصور يقول "يخرب بيتك" بهمس ودهشة، وقام فجأة وقبله، لأنه ـ كما قال ـ يحس بنفس حالة بطل القصة تقريبًا، فمنذ أيام وهو يصحو وكله يقين أن حجرًا ثقيلاً رابضًا فوق صدره، ولكنه لم يكن حجرًا في القصة، بل ثعبان، يصحو واحد من بني آدم، فيجده رابضًا فوق صدره، كامن وهادئ، يتغلب البني آدم علي الصدمة بالهدوء، لأنه كان ذكيًا بدرجة كافية، فعرف أن أية حركة ليست في صالحه، فربما ينزعج الثعبان، ويبدأ في الهجوم مع أول مبادرة صراخ أو حركة، فظل هكذا، لا يتحرك ولا يتنفس، لدرجة أن من يراه سيشعر أنه متصالح تمامًا مع الموقف، كأن الثعبان صاحب قديم، أو مجرد حيوان أليف يداعب مربيه، ولكن اليوم ينتهي، كما هو متفق عليه مع كل الأيام، تغيب الشمس، وتظلم الغرفة، ويصير الثعبان غير مرئيًا، رغم أنه مازال يترك دليل وجوده فوق صدر البني آدم، وهذا الأخير، الذي لم يجد شيئًا يفعله غير التحديق في الثعبان، كل اليوم تقريبًا، يشعر بالنعاس، وهذه ضرورة، فالنوم سنة الحياة، مثل الموت تمامًا، وهما في الواقع نسخة واحدة، فالنوم صورة مصغرة من الموت، صورة مؤقتة، نسخة تجريبية تشبه البروفة، ساعات من الهدنة ونسيان الحياة، والبني آدم ـ بطل القصة ـ حتمًا كان

obeikan.com

سينام، حتى ولو كان الثعبان مازال فوق صدره، يغمض عينيه، وتنتهي القصة، لتبدأ من جديد في نهار اليوم الجديد.

ولكن من منهما لمح التلفزيون أولًا...؟

علي وجه التحديد، هو منصور، وكان ذلك قبل دخول البنت بخمس دقائق، وهي ترفل في مملكة القماش الأسود الفضفاض، لحظتها بدأت مشاهد الأسد الذي يأكل البني آدم، فبدا مأخوذًا جدًا بالمنظر، حتى أنه أمسك الريموت ورفع درجات الصوت، كعلامة على دخوله إلي حالة من الانتباه الكامل، وبدأ بالتدريج يستوعب الموقف، حتى وصل لأن يزعق بنبرة لوم وحنق حقيقية...

- هو الغلطان

وطبعًا هو الغلطان، لو ظل جنب صاحبه المصور، ولم يخرج من السيارة الفورد الضخمة، معرضًا نفسه للأسد الهائج، لما حصل ما حصل.

بعكس صاحبه منصور، ظل هو هادئًا، وهو في كل الأحوال، لا يترك هذا الهدوء، تلك عادته، لدرجة أن منصور، كان يسميه الشبح، ويبرر تلك التسمية ضاحكًا، بأنه يشعر أن صاحبه هذا، كما لو كان، محض

obeikan.com

روح هائمة، لا يتكلم كثيرًا، ولا يضحك، ولا يبكي، ولا يبدى انفعالا، وفي أكثر الأحيان كان يشك في وجوده من الأصل، ولكن سكوته هذه المرة حمل تعاطفًا خفيًا مع هذا الرجل المأكول، فهو ـ في نظره ـ بلا شك مغامر، يحاول البحث عن تجربة مثيرة، غير أنه في كل الأحوال ميت، بأسد أو بغيره هو ميت.

منصور المندهش الغاضب، لم يكف أبدًا عن التعليق، وهو يحملق في الشاشة بذهول، أطلق مئات الشتائم، وأرسل أكثر من عتاب، كأنه يتعامل مع موقف حى، وليس مع أثير يلتقطه تليفزيونه القديم، ولم يخرجه من تلك الحالة، إلا دخول البنت.

بدت، عند دخولها، كخيمة سوداء متحركة، لم يظهر منها غير عينيها، زائغتين وناعستين، كأنها تتلصص بهما علي الدنيا والأشياء من حولها، وتتربص بالخارج وهي داخل خباءها المحكم، الذي ضن حتى علي كفيها بالظهور، فقمعتهما داخل جوانتى أسود لامع، صاحبه الشبح، نظر لها نظرة واحدة، وعاد بعدها لمشاهدة الافتراس، بعد أن وجدها ـ ككل زبونة ـ تتصفح الفتارين والأرفف، ولكنها، وبالتدريج، بدأت تحول عينيها جهة التليفزيون، وحينما تبينت مشهد الافتراس، راحت

تضحك، ثم خبطت بيدها علي صدرها، وصرخت بنعومة مثيرة...

- يا خرابى

obeikan.com

ملائكة الشُّرفة وشياطين السطوح

obeikan.com

obeikan.com

(١)

اسمه حنَّا، في الخامسة والثلاثين، ويعيش في هذه الشقة وحده، وهو لا يضطر لفعل ذلك، إلا لأسبوع واحد كل شهرين، أسبوع الإجازة، الذي يسبقه شهران من العمل علي باخرة سياحية، وهكذا، وبوتيرة واحدة، شهران للعمل، وأسبوع للإجازة، شهران للعمل، وأسبوع للإجازة، يحدث هذا منذ فترة طويلة، تقريبًا سبع سنوات.

لكن إجازته هذه المرة تأخرت، بحيث أنه أمضي علي الباخرة شهرًا إضافيًا، ولذلك لم يطق المبيت فيها ليلة أمس، بعد أن انتهي من دوام عمله، عند الساعة العاشرة، وحصل أخيرًا علي إجازته المنتظرة، تركها في أسوان، وجاء في ميكروباص، بعد ساعة واحدة تقريبًا، فهو يعيش في مدينة صغيرة، لا تبتعد عن أسوان كثيرًا، وبسبب تلك العجلة،

obeikan.com

جاء متعبًا، ونام فورًا.

كانت الباخرة، علي كل حال، ستصل صباح اليوم إلي مدينته، وترسو أمام شرفة شقته المطلة علي النيل، فقط، كان عليه أن يبيت فيها، ليصحو في مدينته، وأمام شقته، وفي إجازة، ولكنه كان يحس بأنه عصفور أطلق سراحه، وينبغي أن يطير حالاً وفورًا، بالإضافة إلي أن وضع العمل، لا يبشر براحة، وهو بطبعه كان يخشى المفاجآت، فما بين ليلة وضحاها، يمكن أن يحدث الكثير، ومع أي طارئ، قد يغريهم وجوده، فيلغوا الإجازة ويستبقونه، وفي داخل نفسه، لن يقتنع بأنه حصل علي إجازة، قبل أن يدخل إلي شقته ويغلق بابها عليه، وقد يبدو هذا مبالغة ليست طبيعية، ولكنه مع ذلك، يبدو منطقيًا جدًا بالنسبة مع واحد مثل حنا، يعتبر أن شقته "فلك نوح" وينتظر بصورة دائمة اندلاع الطوفان.

ولأنه يحب النوم، نام طويلاً، وبعمق، كعادته قبل أن يعمل علي الباخرة، حيث كان ينام في اليوم، نصفه، بالضبط، أثنا عشر ساعة، فعل ذلك لفترة طويلة، تقريبًا خمس سنوات، وكان يشعر بقدر من اللذة، للدرجة التي جعلته يفكر يومًا، لولا السنوات التي مرت، من قبل، ومن بعد، دون

أن يلتفت لروعة هذا النظام، كان سيحسب عمره بسهولة، يقول لمن يسأله :

- أنا في التلاتين .. ولكن عمري الحقيقي ١٥

وهو صادق ..

لأنه يقصد نصف النوم، طبعًا، لأن النعاس سيد الفضائل، ولذلك يخشى حنا مراوغته، فعندما يأتي، فقط، يترك نفسه بالكامل للذوبان في تلك الراحة، ويستلهم منها حكاياته التى يكتبها، فهو لا يعتبر نفسه كاتبًا، بقدر ما هو مجرد نوام، ينام باجتهاد حقيقي، وعندما يصحو يدون أحلامه، لا لهدف معين، إنما لأنه يحب فعل ذلك، وحدث أن راقت أحلامه للبعض، أو وجدوا فيها شيئًا مس أعماقهم، فقدموها في كتاب، لم يدفع صدوره حنا أن يعتبر نفسه كاتبًا، بل دفعه إلي تقنين الوضع، حيث جاهد للعيش نصف العمر نائمًا، ولكنه وجد صعوبة، فقد كان يصحو قبل أن يتم الساعات المقررة، فيرغم نفسه علي النوم إرغامًا، فيعود ويصحو قبلها أيضًا، ولم يشأ أن يستخدم الحبوب المنومة، أراد أن يكون اندفاعه لهذا الأمر طبيعيًا، وهو ما تحقق فيما بعد، بالضبط، أثني عشر ساعة كاملة، لم تنقص، ولم تزد، وفي أول الأمر انتابه شعور

بالكسل، وأحس بأن ضلوعه مفككة، وجسمه هامد، وكان يريد أن ينام أيضًا، وأكثر، وفكر .. ماذا لو نام واحد من بني آدم الأربعة والعشرين ساعة بالكامل ..؟

هذا هو الموت بعينه ..

لكن، قدر لحنا أن يستيقظ في هذا النهار، ولا يموت، هذا أول أيام إجازته، كان لا يزال مستلق علي السرير، حينما سحب علبة السجائر من تحت المخدة، وراح يدخن، كعادته واحدة وراء الأخرى، فغالبًا ما يصحو وهو مشتاق للنيكوتين، بصرف النظر عن هواجس الصحة والمرض، التي أحيانًا ـ وتبعًا للحالة النفسية ـ تتعب ضميره.

وبينما هو يدخن، تخيل غرفته كصندوق مغلق، أرضه سقف لصندوق آخر، يرقد تحته صاحبه القديم حسين علي كرسيه المتحرك، وسقفه أرض لصندوق ثالث، يتضاجع فوقه مدرس ومدرسة حديثا الزواج، وأضلاعه حيطان مشتركة لصناديق أخري، منفصلة ومتراصة تحت وفوق وجنب بعضها، بصورة لا نهائية، بداخلها حيوات متنوعة ومعقدة وناس لا تعرف بعضها بعضًا، كان يتأمل ضوء الشمس الشاحب الذي يمتد في خطوط مستقيمة، ويرسم علي السقف والحيطان بقعًا،

obeikan.com

مربعات ودوائر ومثلثات، علي حسب نوعية الثقوب الذي يدخل منها، حينما فتح الشرفة تلاشت جميعًا، ودخل ضوء شاحب وغبار، كانت الشرفة لا توحي ـ أبدًا ـ بأنها لشقة مسكونة، فالتراب يغطي كل شيء، فضلاً عن أكوام الكراكيب، خشب تالف ومسامير صدئة وبقايا كراسي مكسرة.

كانت الشرفة ـ في زمن مضى ـ جنة، تحف أرضيتها أصص الزرع، وتتوسطها سجادة حمراء، فوق وبرها الناعم كان يتمدد ويغفو في أمسيات الصيف، حيث يجيئها التليفزيون محمولاً فوق منضدة تتحرك بأربع عجلات، ويبث في أركانها صوته الحميمي المختلط برائحة النيل، كانوا أربعة، تجهز لهم سناء الشاي، وتحمله علي صواني منقوشة من النحاس، فوق كل صينية ثلاثة أكواب، لها واحد ولتوفيق واحد، أما حنا الصغير، فيرتشف ما يتبقى من الكوب الثالث، وهو ثقيل كالحبر، لا طعم للسكر فيه، تهتف سناء وهي ترشقه بإصبعها "شاي بابا"... يرتشف نصيبه المقرر من قعر الكوب متصنعًا التلذذ، يمتصه امتصاصا يخرج بصوت يشبه الصفير..

فيضحكون ..

هنا، وفي إحدى الأمسيات الصيفية، قبل ثلاثين عامًا مضت، كان حنا قد غفا فوق السجادة الحمراء، فتركوه ينام، كما جرت العادة، حتى ينتهي الدكتور دميان من قراءة إصحاحه اليومي، ويحمله بعدها إلي السرير، إلا أن ما حدث يومها كان أمرًا عجيبًا، حيث سمع صرخة سناء المفزوعة، فقفل الإنجيل بسرعة، وقفز ناحيتها جريًا، وعند الصالة قابله توفيق لاهثًا..

- ألحق يا بابا .. ألحق بسرعة

كان حنا الصغير واقفًا ببجامته الكستور، يتصبب عرقًا، وجسمه يرتعش، يهذي بكلمات غريبة، يتعسر في نطق حروفها، يخاطب أشباحًا غير مرئية، وعيناه الجاحظتان مثبتتان في الفضاء أمامه بفرحة، ونحو اللاشيء ينظران بلا خوف، أقترب الدكتور دميان ليحميه في حضنه، وحمله - وهو ما بين النوم و اليقظة - إلي غرفته.

وفي الصبح حكي له حنا ما حصل، قال إن ملائكة صغيرة حلوة ولها أجنحة، حملته وطارت به إلي هناك، إلي سهل منبسط حتى حدود المدى، ممتد من الأرض إلي السماء، ومتألق بانعكاسات الماء الفضية المبهجة، مفعم بنسيم الخضرة ورائحة الورود وزقزقة العصافير،

obeikan.com

وتركوه يجري فرحانًا في تلك الحديقة الرائعة، فاتحًا ذراعيه للهواء الذي يعزف بين فروع الأشجار (لحن يجنن) ...

- يا سلام

صاح الدكتور دميان وهو يبتسم لأبنه بشيء من الريبة، فهذا المكان الرائع لا يمكن أن يكون من نسج خياله أبدًا، ولا يمكن أن تصل به التوهمات لهذا الحد من الكلمات المرتبة، وهو بعد طفل لم يتجاوز السادسة، يصف تلك الجنة التي رأها، كما لو كانت حديقة غارقة تحت الماء، أو فردوسًا مختفيًا بين السحب...

- فين المكان الحلو ده يا بابا..؟

- مش عارف..لكن ممكن تحاول ترسمه...؟

- ممكن جدًا

- عظيم .. يبقي أكيد ها نعرف هو فين

أعطاه ورقة بيضاء وقلم رصاص، وراح من بعيد يراقبه، خط حنا خطوطه علي الورقة متوترًا، ثم رفع عينيه نحو أبيه ليسأل..

- أرسم صورة شجرة ..؟

obeikan.com

- ارسم

كان الدكتور دميان يتظاهر بقراءة الجريدة، إلا أنه راح من بعيد يراقبه، فعيناه لا تريان إلا حنا الصغير، مقرفصًا علي أرض الصالة ليرسم، عقله دائمًا يفكر في هذا الولد الذي يتسم بشيء من الغرابة ، ولا يمكن مع غرابته تلك، إلا أن يكون فنانًا أو قديسًا أو معتوهًا، كان يتركه تحت الجميزة المجاورة لحوش الإدارة البيطرية، حيث يعمل، فيظل الولد جالسًا بشرود يخط علي التراب بعصا صغيرة، يرسم دوائر ومربعات ثم يطمسها، وأحيانا تأتيه قطة رقطاء تستأنس للقعود بجانبه، يمسد علي رأسها فتتمسح بساقيه، كان يراه كدمية صغيرة حلوة وصعبة الفهم، عندما يدلي عينيه من الشباك ليحدبا عليه بنظرة سريعة ويعودا، فتضحك زكية زميلته، تقول إنها المرة العاشرة التي ينظر فيها إلي الولد من الشباك، فيبث لها خوفه علي هذا النبت الخيالي الطالع علي حافة مستنقع الدنيا، ويفتح لها من مربع الشباك مجالاً لتشاركه الفرجة والرأي، فتنظر إلي الولد وإلي قطته ثم تضحك، تقول إن ولدها الذي يكبره ببضع أعوام عندما تمكن من قطة خنقها، ربطها من عنقها بحبل وطوح بها من الشرفة، فيقول إن ولده لا يأكل

obeikan.com

إلا قليلًا ، ولا يجوع، ولا يشتهي الحلوى، ولا يحب اللعب ككل الأطفال، لا يجري ولا يتكلم، يقضي يومه هكذا، صمت وشرود غريبين، ويظل ينسج الحكايات الغريبة، التي تشككه ـ هو نفسه ـ في مدي حقيقتها، حتى في الحضانة، يقولون إنه عاجز عن صنع صداقات مع أقرانه، ولا يحب مما يتعلمه سوي الرسم، يترك المراجيح ليقعد جنب بيانو خرب لا يصدر صوتًا، ورغم ذلك يصر على أنه يسمع منه موسيقي جميلة، والأدهي، أنه ينتحي في أحد الأركان، فجأة، ويبكي بلا سبب، آخر مرة قالت له مديرة الحضانة ..

- بصراحة...ابنك غبي وبليد

راحت زكية تمصمص شفتيها بحسرة، وتتكلم بالأمثال، كما تفعل في العادة، عندما يخونها التعبير...

- اللي بلا أم ...حياته تغم

وقالت له "تزوج".. فقال بحدة "أبدًا.. لا يمكن"

ومنبع هذه الحدة، في اللا يمكن والأبـدًا، الـذي نطق بهما الدكتور دميان، لا يكمن في الوفاء للزوجة الراحلة، إنما في الخوف من الزوجة

obeikan.com

القادمة، فالدكتور دميان كبندول الساعة، يتحرك في خطوات ثابتة، وبلا مفاجأت متوقعة، وبصورة أوضح، هو رجل لا يقاوم الدنيا، ويكره أن يتحداها، حتى زواجه كان أمرًا مبيتًا، منذ أن كان جنينًا في بطن أمه، في الوقت الذي كانت فيه زوجته الافتراضية، جنينًا أيضًا في بطن أمها، التي هي عمته، المفاجأة الوحيدة التي اقترفها، كانت موته، بصورة دراماتيكية، وفي واحدة من رحلات الكنيسة الصيفية، وداخل إحدى المغارات فوق قمة جبل عال يشرف علي البحر الأحمر، كان يعيش فيه واحد من رهبان القرن الرابع، مات فجأة في محلة القديس، فطعن بموته فرحة الرحلة التي عادت فورًا بشارات الحداد.

أهو قديس ...؟

عندما يطرح حنا علي نفسه هذا السؤال، كان يجيب بنظرة لا إرادية، فوجهه يتحرك رغمًا عنه، ناحية الشرفة، حيث كان الدكتور دميان يقعد علي كرسيه الهزاز، شابكًا يديه علي ركبتيه في ارتخاء، يتأمل السكون الأحمر، الذي يغمر النيل عند الغروب.

لم يخرجه من ذكريات الشرفة، إلا وصول الباخرة، كبقرة خرافية سابحة في النيل، رأها حنا تقترب من المرسى، ومن وقفته وراء

obeikan.com

حافة الشرفة الدائرية، ميز بعض وجوه البحارة التي يعرفها، من فوقها وتحتها، وأمامها وخلفها، متأهبون بحبالهم وأوتادهم، يشيرون لبعضهم بإشارات يعرفونها، ويصرخون أحيانا بأصواتهم الطليقة، والباخرة في تلك أثناء لا تكف عن الصفير، دوي هائل اعتادت أن تطلقه عند وصولها لكل مرسي، تزامن صفيرها مع رنين الموبايل فوق الكوميدينو، فخمن حنا إنه منصور، واستدار متجهًا ناحيته، ولكن مع تحركه لمح شيئًا غريبًا، كان بين أكوام الكراكيب المغبرة، له لمعة واضحة باحمرارها القاني، تسمر مكانه فجأة، وانحني ليلتقطه بين أصابعه.

obeikan.com

(٢)

الموقف كله، بدا نوعًا من تلك الاكتشافات الغامضة، التي نرى فيها أنفسنا، بصورة لم نتوقعها عن أنفسنا، يحدث هذا ـ غالبًا ـ في إطار كاف من المهابة، تتناسب مع قداسة اللقاء وذواتنا الأخرى المجهولة، فحنا نفسه، لم يكن يتصور أبـدًا، أنـه، وبعد أن تجاوز الخامسة والثلاثين، سيندهش كل هذه الدهشة، التي شك في شذوذها كثيرًا، لمجرد رؤية قطعة صغيرة من ملابس النساء الداخلية، كيلوت صغير، ليس إلا، وجده بالصدفة في ذلك النهار، وأنه سيكون مأخوذًا به علي هذا النحو، الذي أيقظ منابت الشعر في جسمه، وجعل ضربات قلبه تتسارع، وريقه يجف، وراح يرتجف، كما لو كان بصدد القيام بجريمة.

كان واقفًا في الشرفة، ينتظر ـ كما عرفنا ـ وصول الباخرة، وفي وقفته

هذه يمكنه أن يرى صفحة النيل، ويمكنه أيضًا أن يرى الباخرة عندما ترسو، بعد نصف ساعة، أو أقل قليلًا، ولحظتها راودته رغبات طفولية، أن يلوح مثلاً بيده لها من بعيد، وفكر أنهم، بلا شك، سيحسدونه، علي اعتبار أنه في إجازة، ليلة أمس، لم يطق المبيت فيها، تركها في أسوان، وجاء في ميكروباص، كان يحس بأنه عصفور أطلق سراحه، وقد كان محبوسًا في الباخرة فعلًا، هو وغيره، لم يتمكن من الخروج أو الدخول، لأنها كانت تستضيف فوجًا أمريكيا، والإجراءات الأمنية المشددة، عطلت كل الإجازات، ومنعت العاملين من الخروج، ولو لبعض الوقت، فالوضع كان متأزمًا، والأمريكان كانوا قد أخرجوا صدام لتوهم من جحره، وحالة من الخوف الشديد سادت علي رعاياهم في البلاد العربية، وعلي هذا، تأخرت إجازته المرتقبة شهرًا كاملًا.

وطبعًا تضايق، لدرجة تضخمت معها مشاكله الصغيرة فجأة، وصارت أكبر من كل تلك المهاترات التافهة، بوش يبحث عن صدام، وصدام اختبأ كالفأر، والمخابرات تبحث عن مطلوبين، طبعوا صورهم علي كوتشينة، فيلم كارتون، ناس فاضية وتافهة، ما دخله هو بكل هذا، فهو تعبان، وعمله في البار لا يرحم.

سأله المتر عاطف ساخرًا، في أول أيام عمله علي الباخرة، ما دخل البار بالفلسفة...؟ أجاب: لا أعرف، فقال له المتر في جملة قاطعة: إذًا فالتنس ليسانس الفلسفة، وأنا سأجعل منك بارمانًا حقيقيًا، أسد يقف وراء الكوانتر، فرد حنا بحماسة شديدة:

- وأنا معاك.

المتر عاطف كان ماهرًا فعلًا، لا يخطئ من يراه، ولو خارج نطاق العمل، أنه، على الأقل، رئيس خدم في قصر لورد إنجليزي عريق، ويتذكر حنا، ببعض الفكاهة، أنه في بداية عمله بالبار، كاد يودى برئيسه المتر إلي حافة الجنون، ففي ذات مرة، وجده فوق رأسه وهو يصنع كوكتيل المارجريتا، كان يهز رأسه بأسي وهو يراقبه، اضطرب حنا كعادته، عندما يحس بأن هناك عيون تراقبه، تعثر، وامتلأت أظافره بعصير المانجو، وسقطت الشوكة علي الأرض، التقطها المتر، رفعها ونظر إلي أسنانها قليلًا، ثم وضعها في حوض الكوانتر، وبصمت، أخذ السكين من يده، وأمسك ثمرة المانجو بحنان، كأنه يمسك قطعة من اللحم الحي، ووضعها علي سطح الكوانتر، وبدأ يعمل فيها السكين بسرعة وآلية، وفي أقل من دقيقة، كانت راقدة علي طبق صغير، شرائح متناسقة وشهية،

بلا قشرة أو نواة، ولم يخلف قطرة واحدة، علي الكوانتر، أو علي يده، كان مذهلا، وبدا ببدلته السموكن وببيونته السوداء ساحرًا أنتهي لتوه من عرض فقرته.

كان حنا يمسك بالكيلوت في يده، عندما جاءه صوت منصور في الموبايل مترددًا..

- الدنيا كلها تراب

- آه .. تراب

وسكت ..

- رجعت ..؟!

- آه .. رجعت

وسكت ..

- ما لك ..؟

سكت قليلاً .. ثم قال بدهشة:

- تصدق .. ؟! لقيت كيلوت أحمر في البلكونة

obeikan.com

كان صغيرًا جدًا، بحيث أنه بالكاد ملأ راحة يده، عندما فرده فوقها، وهو يتأمله بدهشة، ورهبة، ويتحسس بصورة أقرب إلي الوجد، تلك النعومة الطاغية، التي من فرطها، أحس بأنه لا يلمس شيئًا، رغم أنه مرره، أكثر من مرة، بين أصابعه، وكان قبلها قد جرب أن يطويه، طيات كثيرة وصغيرة، حتى صار بإمكانه أن يدسه ـ لو أراد ـ داخل علبة سجائر، وهذا في حد ذاته، ما لا يحتمل التفكير فيه، أنه سحر، والأدهي، كان إحساسه اليقيني، بأن هذا الموقف ما هو إلا رسالة نازلة من السماء.

الكيلوت، الأحمر الصغير، لم ينزل من السماء طبعًا، ولكنه سقط من شرفة الشقة التي تعلو شقته، حيث سكن فيها مؤخرًا، مدرس ومدرسة حديثا الزواج، وحنا ليس غبيًا حتى يتخيل غير ذلك، كما أنه أمر وارد، ويحدث كثيرًا، خصوصًا في أيام الخماسين هذه، التي يمكن لرياحها أن تطير أى شيء لأى مكان.

خيل إليه أنه يحلم، حيث ظل قابعًا ـ لفترة ـ في المساحة الفاصلة بين الحلم واليقظة، يحاول أن يرمم الجدار القائم بين الوعي واللاوعي، حتى لا ينهار فيجن، ولكن، لم يمنعه ذلك من أن ينساب في حلمه

كالماء، حلم بأنه يسقط في بئر معتم، لا يبدو لعمقه نهاية، وبالرغم من ذلك، بدا إحساسه مفعمًا باللذة، أغمض عينيه، واسترخي تمامًا، كان يحس بأنه يطير، وهو يتشكل بخفة في فضاء العتمة، لم يكن خائفًا، لأنه يعرف أنه سيظل هكذا، ربما حتى يموت موته الطبيعى، لأن هناك سنوات طويلة تفصله عن الارتطام بقاع البئر، أو بالأدق، سيحدث هذا مع جثته، بعد أن يكون قد مات فعلًا، وهو يطير، وهذا لم يعن له شيئًا، لأنه لحظتها لن يشعر بشيء، وستكون روحه واقفة بشماتة عند فوهة البئر، تراقب ارتطام الجثة، التي لا تعني شيئًا، بالقاع.

وهو يطير، هكذا، هابطًا بخفة، نحو القاع الذي لن يأتي، سمع زقزقات عصافير، كانت منفرة وغير منسجمة تمامًا مع الحلم، زقزقة آلية ومتكررة بإلحاح غريب، لم تكن فيها روح، لدرجة جعلته يستفيق، ويفتح عينيه، ولكن الزقزقة المنفرة لم تتوقف، بل ألحت وتكررت، رغم خروجه لحيز الوعي فعلًا، فكر..هل تهدم الجدار..؟ إن الجنون يبدأ هكذا، عندما يختلط الحلم باليقظة، فلا تتمكن من تمييز الوهم عن الحقيقة، ولكنه ـ ولسوء حظه ـ لم يجن في تلك اللحظة، بل احتاج وقتًا ليعرف أن الصوت المنفر، كان لجرس باب الشقة.

كان علي الباب، جاره المدرس، جاء يسأل : هل وقع شيئًا من شرفتنا ..؟ سؤال صغير، وكلمات قليلة، هذا يكفي، فعندما بدأت الرياح تثور، والغبار بدا كشبح همجي، يحجب الدنيا عن العيون، كانت المدرسة، زوجته، في عملها، وكان القلق ينهش قلبها، فربما صار الغسيل ـ علي الأقل ـ طينًا، هذا إن لم يطر منه شيئًا، وذلك ما صدمها فعلًا، عندما اكتشفت غياب قطعتها الأثيرة.

– مافيش حاجة وقعت من عندنا ...؟

– لا

قال (لا) بسرعة، لأنه لم يعرف ما الذي يجب عليه أن يقوله، مثلًا، هل كان من اللائق أن يقول (نعم) ..

" نعم .. كيلوت المدام عندي فوق السرير، وكنت ، منذ دقائق، أشبكه في إصبعي وأنا نائم"

هذا لا يصح أبدًا ..

بالأخص مع هذا الجار، المرتاب دائمًا، الذي يقذفه بنظرات الشك، في صعوده ونزوله، علي اعتبار أنه الأعزب الوحيد في العمارة، أو علي

obeikan.com

اعتبار أنه يعمل فى الخمور علي بواخر السياحة والفجور ..

حدجه المدرس بنظرة اتهام طويلة، قبل أن يهمس "شكرًا" وهو يستدير علي عقبيه ويمشي غاضبًا.

obeikan.com

(٣)

هذه العمارة تغيرت، بالتدريج، هجرها السكان، وتعاقب عليها آخرون، لأنهم فى الغالب مستأجرون لا تربطهم بالعمارة إلا ورقة الإيجار، فلم يتبق من طاقم السكان القدامى، ممن عاصروا كل عمرها تقريبا، إلا حنا، وصاحبه القديم حسين.

حسين يسكن تحت شقة حنا مباشرة، وله نفس العمر تقريبًا، ولذلك تزاملا في كل مراحل دراستهما، وإذا أضفنا العلاقة العائلية التي كانت متبادلة كجيران، يمكننا أن نتوقع أن يكونا صاحبين، ولقد كانا كذلك فعلًا، رغم أن أحدهم كان منطلقًا لحد الجنون، والأخر كان منطويًا لحد العته، فهما طرفي نقيض، إلا أن المرحلة الثانوية فرقت بينهما، حيث وقعت لحسين حادثة أقعدته عن المواصلة، ومع مرور

obeikan.com

الأيام تزوجن شقيقاته، ومات أبوه، فظل حسين وحده مع أمه العجوز.

ظل اسم العمارة القديم متداولاً ـ عمارة الخبرا ـ حتى بعد رحيل هؤلاء الخبراء منذ زمن طويل، كانوا أجانب استقدمتهم شركة السكر مع تأسيس المصنع الجديد في مطلع الستينيات، كان المصنع في البر الغربي للمدينة الذي لم يكن سوى صحراء، وكانت العمارة في الجهة المقابلة من النيل، وبدأت المدينة، منذ ذلك التاريخ، تعرف قطار القصب، ذلك الذي يقطعها بقضبانه إلي نصفين، من الحقول شرقًا حتى المصنع غربًا، ولكنه لم يكن مثل نظيره المخصص للسفر، كان جراره صغيرًا وعرباته تبدو كعلب الصفيح، يشحنها الفلاحون بالقصب في الشرق، فيهدر الجرار القديم نحو الغرب، ويمر في طريقه بالنيل فوق جسر صغير.

هنا، كان يلعب حسين، يتسلق عربات القطار الخطيرة، ويسرق عيدان القصب، كان طفلا صاخبا، بعكس حنا، الذي لم يكن يشاركه اللعب، بل يكتفي بالإنصات لحكاياته العجيبة، وبالأخص، عندما يكون موضوعها سعاد بنت البواب، تلك الصبية الجميلة السمراء التي تكبرهما ببضع سنوات، كان حنا يشك ـ طبعًا ـ في صدق حكايات حسين عنها، وحسين

obeikan.com

ـ في المقابل ـ يرى نظرة الشك عند صاحبه، فيسهب أكثر في الحكي، مكررًا ـ في كل مرة ـ تفاصيله الصغيرة ...

- تحب تشوف بعينك ؟!

قال له ذات مرة بنبرة واثقة

- النهاردة هاتطلع سعاد معايا فوق السطوح

وعلى سطح العمارة أشار حسين إلي ركن مظلم، ستقف هنا، قال لحنا، وسترى بأم عينيك، فأنا لا أكذب، حنا كان خائفًا، يرتجف، وأمعائه تتقلص بألم فظيع، لدرجة أنه فكر في الانسحاب، ولكنه عندما قرر أن يفعل ذلك، رأى سعاد طالعة على السلم، فتراجع، بينما توقفت سعاد مترددة عند أخر درجة، نظرت وراءها برهبة، ثم مشت على أطراف أصابعها، كان حسين ينتظرها بجوار عشة الفراخ، وعندما رأها تقدم في خطوات سريعة، ثم أخذها من خصرها وقبلها، سرت بينهما همهمات ضعيفة، تبين حنا فيها أنها تصده، ثم بقيا لحظة جامدين، لا يتحركان، وجها لوجه، حدق كل منهما في الأخر، ثم، وكما لو باتفاق صامت، تجردا من ثيابهما، وانسكبا على الأرض، وأنثني بدن كل منهما في الأخر .

عند الجسر، يوقف السائق قطاره أحيانا، عندما يتسلق الصبيان مؤخرات العربات، ثم يبدأ في مهاجمتهم بقصبة غليظة، وفى الغالب، كان حسين يقفز في النيل، ويعوم كسمكة، كان ماهرا في ذلك جدا، ولكن، هذه المرة، عندما أندفع ليقفز، أمسك شئ ما بقدمه، فسقط، وألتهم قطار القصب نصفه، نصفه تقريبًا، حيث بترت ساقيه، الاثنتين، من فوق الركبة.

بعد عودته من عمله علي الباخرة، في المرة التي فاتت، وبينما كان حنا ينزل السلم، في طريقه إلى منصور، كعادته، عندما يحصل علي إجازة، رأى حسين جالسًا علي كرسيه المتحرك، عند مدخل شقته، كانت أمه قد فتحت ضلفتى الباب، حتى تتمكن من إخراجه، وعندما رأت حنا نازلاً قالت بفرحة ...

- رجعت ...؟!

وكأن رؤيتها له، وهو ينزل علي السلم، تحتاج إلي تأكيد ..

- آه .. رجعت !

- يا سلاااام .. جيت في وقتك

أشارت إلي حسين وهي تُضيق من حدقتيها ..

- طيب .. نزله يصطاد

كان حسين قاعدًا على كرسيه باستسلام، يمسك بيده صنارة وشنطة قماش وعلبة صغيرة، ويضع على وجهه تكشيرة، ولكنه كان صامتًا وممتثلاً تمامًا للحركة المفاجئة التي بدرت من أمه، حيث أدارت الكرسي، مرة واحدة، ووجهت مقبضه ناحية حنا.

- خد

فأخذ، ولكنه ما إن أمسك بمقبضي الكرسي، إلا ووجد نفسه يفكر ماذا ينبغى أن يقول في هذا الموقف ...؟ كان في داخله ينهار من الخجل، ويحاول أن يعتصر عقله بحثًا عن دعابة، أية دعابة، ضحكة، كلمة، نكتة، شيء ما يقتل هذا الصمت الثقيل، ولكنه لم يجد، فظل صامتًا.

وكانت، تلك، هي المرة الأولى التي يدفع فيها مقعدًا متحركًا، حاول توجيهه ناحية السلم، ولكنه تعثر، خانته العجلات، فقد كانت تتحرك بصورة مستفزة، مما دفع حسين إلي أن يوجهه ...

- أنزل بضهرك

openkan.com

ففعل، ورأى أن ذلك أفضل، قال حسين شيئًا لم يسمعه، فقال حنا : إيه...؟ وفى الوقت نفسه راح يتابع خطواته الخلفية المضطربة، ردد حسين وهو يشير إلى درجات السلم ..

- السلم بس .. على الأرض ممكن أساعد نفسى .. وحدى

أمام النيل، وقف حنا بجواره صامتًا، كان حسين يلقى بصنارته، وقال دون أن يحول وجهه ..

- قلت لأمي عاوز أصطاد

وأبتسم بمرارة

- قالت حيلى مهدود

لم يجد حنا ما يقوله، فظل صامتا، وكان صمته هذا يضايقه جدا، ولكن .. ماذا يقول..؟ كان يفكر في صياغة جملة يقولها، عندما تكلم حسين أيضا، كأنه يناجى نفسه ..

- راحت فتحت التليفزيون

ثم حول وجهه ناحية حنا وهو يشرح بيديه ماذا فعلت أمه بعد تشغيل التليفزيون..

obeikan.com

- جرتنى بالكرسى قدامه

ثم ضحك

- قالت أتفرج على المسلسل أحسن .. بلا صيد بلا كلام فارغ

وراح يضحك

ثم بدأ ضحكه يعلو، وتحول إلى صورة هستيرية صاخبة، حتى أنه بدا في شكل أقرب إلى البكاء، أو الصراخ، مما جعل العيون تنظر ناحيتهما، فشعر حنا بالخجل، وبدأ أيضًا يخاف، ودفعه خوفه إلى أن يستدير ببطء، ويمشى.

هذه المرة، وهو نازل، لم يصادف حسين، ولا أمه، سمع صوتهما فقط من وراء باب الشقة المغلق، كانا يتشاجران...

حسين يزعق في غضب

- قلت نازل يعنى نازل

وأمه ترد مستنكرة

- تنزل فين ..؟! الدنيا كلها تراب

obeikan.com

فيرد علي استنكارها بغضب ..

- يا قحبة .. يا شرموطة

ويكيل لها الشتائم، بصورة سريعة ومتوترة، قبل أن يقذفها بالمزهرية، هكذا خمن حنا، لأنه سمع صوت زجاج يتكسر وهو يقف جنب باب الشقة يتصنت، فجأة، تخيل أن "الفازة" الزجاج تقصد رأسه، هو نفسه، وبحركة لا إرادية، وضع كفيه فوق رأسه ليحميها، ثم نزل على السلالم جريا، وعند أخر درجات السلم تعثر، ألتوى كاحله، فسقط على وجهه، كان خائفًا وقلبه ينبض بدقات عنيفة، لم يكن سقوطه خطيرًا، إذ كان بإمكانه أن يقوم واقفا مرة أخري، حدث ذلك أمام غرفة البواب، حيث كانت سعاد جالسة على كنبة بجوار الباب، كعادتها، حينما تأتى لزيارة والدها، كانت قد تزوجت وزاد وزنها، ترقد كبطة مستكينة، بينما يلعب صغارها في الشارع، بشرط صارم، ألا يقتربوا من قطار القصب.

صاحت

- أسم الله عليك

وحاولت التغلب علي وزنها لتقوم، فلم يكترث حنا للهفتها، كان يشعر

بالخجل، مما دفعه لأن يعتدل بسرعة، ودون أن يفكر في تسوية ملابسه، مرق من باب العمارة كسهم.

حدث ذلك، في الساعة الخامسة، حيث هدأت الرياح كثيرًا، والغبار كان في سبيله إلى السكون، وظهرت الشمس من جديد، قريبة، وحمراء، تختفي ببطء وراء جبال البر الغربى، مما جعل شارع الكورنيش يمتلئ بالناس، فالمقاهي فتحت أبوابها، وأنهمك صبيانها في رش الماء تحت الكراسي.

كان حنا يمشى بعرج خفيف، يتحين فرصة بلوغه لرصيف مبنى مجلس المدينة، حتى يكشف عن كاحله المصاب، خمن انه تورم، لأنه كان يشعر بألم رهيب، ويشعر كذلك بالضيق من نفسه، لأنه تجرأ وتنصت على شقة جاره، وقبلها أيضا، كذب على جاره الآخر، قال : لم يقع في شرفتي شيئًا، بينما كان الكيلوت الأحمر على سريره، وهذا لا يعنى إلا شيئًا واحدًا، أنه بدأ ينحدر للأسوأ، وعندما فكر في ذلك، كره نفسه، وود لو تمكن من معاقبتها، فأرتاح لفكرة التواء كاحله، وسقوطه، وحسب أن ذلك جزاءً عادلًا، مما جعله يعرج بصورة أشد، ويحس بالألم أكثر.

في الجهة المقابلة، عند سياج المرسى، كانت سيدة منقبة تسير

بالتوازي معه، اسمها صفية، ومن موضعها، عند سياج المرسى، لاحظت عرجه، ولاحظت كذلك تعبيرات الألم التي تكونت على وجهه، عندما كشف عن ساقه علي الرصيف، أنزل جوربه قليلاً ليتحسس مكان الوجع، فأكتشف أن كاحله ـ فعلاً ـ متورم.

صفية كانت تعرفه، رأته ـ أكثر من مرة ـ في دكان منصور، ولا يعنى ذلك أن حنا كان يعرفها، ربما يكون قد رآها من قبل، ولكن، أن ترى منقبة، فكأنك لا تراها، خصوصًا، لو لم تتبادل معها الكلام، وكما قلنا، حنا لا يحمل أية مواقف، تجاه هذه النوعية من الملابس، ولكنه بدأ يلاحظ ـ مثل غيره ـ انتشارها بصورة كبيرة في المدينة، وبالرغم من أنه لا يهتم بمثل هذه الأمور، إلا أنه كان يتضايق إذا تصادف وجلس بجانب واحدة منهن في الميكروباص، يشعر طوال الطريق بأنه متهم، فيتخشب في جلسته، كما لو كان جذع شجرة، فواحدة لا تحب أن يراها الرجال، لابد أنها تخشى ـ بالقطع ـ أن يلمسوها.

لا نعرف، على وجه التحديد، لماذا كانت صفية تتمشي في شارع الكورنيش، ولكننا على يقين أن رؤيتها لحنا، كانت صدفة، حيث يتكرر هذا النوع من المصادفات كثيرًا في المدن الصغيرة، فرؤية الشخص

نفسه في اليوم الواحد عدة مرات أمر طبيعى، وكل ما نعرفه، إن صفية، لن تذهب إلي منصور مباشرة، بل ستقضى بعض المشاوير التي تخصها، مما يتيح لحنا أن يصل قبلها، بالرغم من إنها أوشكت ـ الآن ـ أن تسبقه، وبدأت بالفعل تتجه يسارًا، عند ناحية شارع المعبد، بينما يمشى هو بعرجه المؤلم.

obeikan.com

obeikan.com

المدينة في يوم الغبار

obeikan.com

(١)

هنا ..

في مواجهة الميدان، يقع دكان منصور، ولكنه يميل قليلا ناحية شارع السوق، حيث تنبعث رائحة نتن الخضار الفاسد، وتختلط برائحة روث البهائم الرابضة عند النافورة، لكن النافورة ـ نفسها ـ جميلة، لها شكل سمكة، تلمع تحت الشمس بلون الفضة، وهي أيضا قديمة، جاءت كمنحة من مؤسسة أجنبية، لعلها كندية، بشرط وضعها في الميدان المفضى إلى المعبد القديم، ومن يومها، تغير اسم الميدان، فلم يعد ميدان السوق، بل ميدان النافورة، وأحيانًا ميدان السمكة.

الغريب، أو الذي لا يعرفه الكثيرون، أن هذا الميدان، المعروف بالنافورة، يطلق عليه في سجلات الدولة، ميدان النهضة، وكان مجرد

obeikan.com

ساحة واسعة لبيع الخضار، لكنه، ومع قدوم النافورة، تحول إلى موقف لعربات الكارو والحنطور، وكل جمعة، يُنصب حوله سوقًا للبهائم، كنوع من الاستفادة بموقعه في وسط المدينة، بالإضافة إلى أن الماء الذي توفر بوجود النافورة (بركة مستديرة تقفز السمكة الفضية برشاقة فوقها) لعب دورًا مؤثرًا، لأن الماء ضرورة، فهو كل شيء، خصوصًا وأن القيظ في المدينة رهيب، ففي ظهيرة أيام الصيف تتوهج الشمس بصورة مذهلة، وتنطلق بنيرانها، لتعربد على الأرض، وتلسع بسخونة سياطها الأبدان، وفي الأفق تتجمع أشعتها لتصنع بحيرة وهمية لامعة، تتموج وسط دوامات الصهد السابحة فوق النافورة، وتفوح في الجو روائح النتن ممتزجة برائحة القار المنصهر، فالإسفلت يذوب، ينقش فوقه حوافر البهائم و نعال الأحذية، ويصير لينا تحت أقدام العابرين، وتصير النافورة ملاذًا، ففي هذا الجحيم، ومن حين لأخر، يمكنك أن تلمح رجلاً يقفز حجلاً فوق جمر الإسفلت، يعبئ الدلو من بركة النافورة، ويدلقه فوق رأس بهيمته، ويكون ـ وقتها ـ ميدان النافورة خاليًا، ربما ـ وحتى يكتمل المشهد ـ ستلمح عربة كارو وحيدة، شاردة بلا سائق، يطأطئ بغلها الهزيل رأسه، ويمشى بخمول.

obeikan.com

ولكن، يومنا، لم يكن علي هذه الصورة، كنا في الربيع، وربيع المدينة ـ دائمًا ـ ما يأتي هكذا ...

يشتد الحر، وتثور الرياح، جافة وحارة، ويثور معها التراب، غبار كثيف، يحجب قرص الشمس خلفه، إلا أن صباح يومنا كان مقبولًا، لولا تلك الرياح هاجت فجأة عند الظهيرة، وملأت الدنيا كلها بالتراب، وطيرت كل شيء، حتى لافتة الحاج حكيم المعلقة على زعنفة السمكة، منصور، القاعد قدام الدكان، كان يتسلى بمراقبتها وهي تدافع عن وجودها بحركات ماجنة، تنطوي، تنبسط، وتتراقص، تخفى الكلمات المطبوعة عليها، ثم تعود فتظهرها من جديد .. أبنكم .. البار .. انتخبوا، وتهتز، تهتز بقوة، وترفرف، وفي دفقة باهظة من الغبار، أفلتت من السمكة، وطارت.

فرك منصور عينيه، ودخل، وضع كرسيه قدام التليفزيون، وفكر بأن الرياح ربما أفسدت الوصلة، كانت القنوات مشوشة قليلًا، والدكان كله تراب، على الأرض، والأرفف، والفتارين، وبالرغم من ذلك، كان منصور سعيدًا، خصوصًا حينما تأكد أن مجلس المدينة ـ حماية للسائحين ـ قرر أن يوقف الحناطير، وخصص ـ كبديل ـ أتوبيسين

كبيرين لنقلهم، كان يمر كل واحد منهما قدام الدكان، ثم يرجع لينقل آخرين، من الكورنيش إلي المعبد، والعكس، وذلك ـ بالضبط ـ ما تمناه، وهاهي الظروف، كل الظروف، تخدم مقاصده الخبيثة، التي لا تستحق بساطتها أن يتمني الأهوال للمدينة، حيث هز رأسه ساخرًا وقال " تبقى أن ننتظر الصاعقة، لعلها تنزل من السماء وتقضى علي الجميع، بألف داهية" ثم ضحك، إذ تخيل أن ذلك يحدث فعلًا، وفكر في درجة التواطؤ التي من الممكن أن يمنحها له الكون، إذا ما فكر في اصطياد فتاة، آه، هذا هو كل ما يتمناه، فهل يستحق ذلك أن تسحق المدينة بصاعقة...؟

المدينة صغيرة، لا تتجاوز شوارعها عدد أصابع اليد الواحدة، تنتهي، أو تبدأ، بشوارع أضيق، يكفي اتساعها ـ بالكاد ـ لثلاثة أفراد، ولكل شارع اسم، اسم مجهول، لا يعرفه أحد، ٦ أكتوبر، الجمهورية، ٢٦ يوليو، وهكذا، الشارع الوحيد المدون في سجلات الدولة بما يوجد فيه فعلًا، هو شارع كورنيش النيل، ورغم ذلك، فالناس يطلقون عليه شارع البحر، وهذا تحديدًا، أجمل شوارعها، حيث لا يبعث علي النوم، مثل باقي الشوارع التي لا يمكن مواجهتها إلا بذلك، فلا مكان، في الواقع،

obeikan.com

يمكنك أن ترتاده، غير عملك والبيت، وربما المسجد أو الكنيسة، وفي أكثر الأحوال احتفالًا، ستذهب إلي مقهى، وذلك يقتصر علي الرجال، ولأن طبيعة الأعمال المتوفرة في المدينة، لا تتيح الانشغال إلا لساعات قليلة، يحار المرء بعدها، فماذا يفعل..؟ خصوصًا إذ لم يكن له عادات معينة، مما يدفعه إلي النوم، أو الجلوس في الشرفات، أو علي عتبات البيوت، مع ترفيه متكرر يبثه التليفزيون أو الراديو، مثلما يحدث في أمسيات الصيف، حيث تتحول المدينة إلي سلسلة لا نهائية من العيون، فوق وتحت، يمين ويسار، في المواجهة، وخلف الظهر، عيون كالكاميرات، تلتقط أى شيء، وكل شيء، فتشعر وأنت تمشي، كأنك مراقب، وتصير كل بادرة تصدر عنك مادة لحوارات مستفيضة، لا تكتفي بمراجعة أحداث حياتك، بل تتطرق إلي تاريخ أجدادك أيضًا، كما لو كان ـ كل شيء ـ مكتوبًا في سجلات خفية.

في تلك الظروف، يصير الجميع حراسًا للفضيلة، والويل لمن يحاول التمرد على الملل، لا حبًا للفضيلة، أو الملل، إنما لأن التمرد سيكون بقرار منفرد، مما يعد ظلمًا للبؤس الذي يعيش فيه الآخرين، مثلما قرر منصور ـ الخبيث ـ أن يفعل، فى هذا اليوم الأغبر الذي لم تظهر له

شمس، متجاوزًا كل الحدود، كاسرًا كل الأعراف، ومتخيلاً أن بإمكانه الإنفراد بفتاة، دون أن تلتقطه الكاميرات.

هناك، عند البحر، أو النيل، كان يقف كل أتوبيس بصورة قريبة جدا من أخر درجات سلم المرسى، فيخرج السائحون من بواخرهم جريًا، وهم يتفادون بكل ما في أياديهم التراب، وكان شارع الكورنيش خاليًا، ولم تكن ـ تلك ـ هي حالته، ففى العادة، ومع قدوم كل باخرة جديدة، كان لا يعدم هرولة المتحفزين ناحيتها، خليط غير متجانس من البشر، متسولين، عربجية، خرتية، فضلاً عن بائعي العاديات وتجار العملة والعساكر، منصور، كان يحصى مرات مرور كل أتوبيس، يقول، واحد، اثنان، ثلاثة، ويرسم، على الكراسة التي يدون فيها حسابات الدكان، بورتريهات صغيرة لوجوه غاضبة، ومن حين لأخر، يلقى نظرة سريعة ناحية شارع الكورنيش، وأحيانًا، يخطط خطوطًا بلا معنى، كتب بقلمه الأزرق (حنا) وكتب أيضًا (صفية) وصنع بينهما خطًا مستقيمًا، ثم كتب (شقة) وأحاطها – هذه الكلمة بالذات – بدائرة ودائرة ودائرة، ثم وضع تحتها عدة خطوط .

بديهى، إنه كان يفكر، ولكن بطريقته، فهو من هذا النوع الذي لو

أعطيته قلمًا، وهو يفكر، فإنه سيملأ لك الدنيا رسمًا وتخطيطًا، بحيث يمكنك أن ترى عقله، بالكامل، مفتتًا علي الورق، ففي تلك اللحظة اللاشعورية من التفكير، لم يخط منصور، بنفسه، هذه الخطوط، إنما فعلها منصور الآخر، القابع في العمق، وراء طبقات وطبقات من الزيف المرتب، ولذلك، كانت هذه الطريقة تعجب حنا، الذي كان اللاوعى - هو الآخر - يمرر له القصص عبر الأحلام، ويرى إن التفكير بهذه الصورة هو أصل الإبداع، وما دونه ليس إلا نوعًا من الترتيب، أو التنميق، فالأصل الحقيقى للفكر هو صورته الأخرى، النيجاتيف السالب، الذي يشبه المادة الخام في الطبيعة، لها صورة واحدة في كل الأحوال، لا تفنى، ولا تستحدث من العدم، حيث يقتصر إبداعنا على استخراجها، أولًا، ثم ترتيب ظهورها بأشكال مختلفة، فكما تتحول الحرارة إلي ضوء، تتحول الشهوات إلي فضائل، وكما تتحول الحركة إلي كهرباء، يتحول الجنون إلي إبداع .

تلك الأمور الخطيرة، لا يفهمها منصور، الذي تحول، بدوره، إلي جمرة متقدة، ظلت تتوهج في ذلك اليوم الأغبر، للحد الذي جعل "سلوم" صبى المقهى يعلق :

- وشك مولع زي بص الشيشة ..

ولم يفهم منصور إنه أحمر فعلًا، وأن صبى المقهى لا يقصد بكلامه العينين، ولا يحمل إسقاطًا علي لفافات الحشيش- الوفيرة- التي دخنها منصور منذ الصباح، كما تخيل، ففتح خرطوم شتائمه القذرة "أمشي يا بن المرة الـ....." وهم بقذف صينية الشاي في وجه الصبى المسكين، أو أدعي أنه بصدد فعل ذلك، لأن الصبى تبخر فجأة، طار، بينما منصور يتساءل : كيف تمكن من أن يكشفنى ..؟

لم يكشفه سلوم وحده، بل كشفه حنا- أيضًا- حينما جاء، وكان منصور قد حاول أن يفاتحه في الأمر، عندما أتصل به، ولكنه أكتفي بالثرثرة عن حالة الجو، لأنه يعرف طبيعة صاحبه المحافظة، هذا الذى يعمل بارمانًا، دون أن يجرب، ولو مرة، شرب الخمر، حنا الذي يبدو كالمعتوه، أو كمن ولدوا بقصور في التعاطى مع الدنيا، إلا أن منصور، عندما أقترب منه، وجد أنه أجدر الناس، في الحقيقة، بفهم الدنيا، الولد يكتب القصص، ويقرأ، يقرأ كثيرًا جدًا، إن العيب ليس فيه، بل في الدنيا، ولكنه، بالرغم من بؤسه، يصل لأبعد حدودها، متوغلاً في كل أسرارها، عبقرى حنا، بدرجة يتصور معها إنه يتنبأ.

يتنبأ ...؟!

ليس بالضبط، هذا مبالغ فيه، إنما المقصود، إنه يعرف ما يدور بالعقول قبل أن تنطق به الألسن، فحينما جاء حنا إلي الدكان، وقبل كل شئ، أمسك، دون اتفاق، بكراسة الحسابات التي وجدها أمامه، وبغير أن يعى تمامًا معني تلك الطلاسم المبهمة، التي نكشها منصور، حرك سبابته فوق الخطوط التي تبدو كخريطة، تأمل الرسوم، وقرأ الكلمات، وبينما هو يفعل، بدأ وجهه، بالتدريج، يتلون بالأحمر، لا كما تلون منصور الذي كان يتقد منذ قليل، بل باحمرار مختلف، لا يعبر عن الاشتعال، بقدر ما يشي بالتوهج، أو بتعبير أدق، التورد، حيث بدأ الدم يتدفق تحت جلد الوجه مباشرة، بعد أن تلقت مستقبلات بيتا الأدرنالية أمرًا من الجهاز العصبى السمبثاوى بتوسعة الأوعية الدموية، وتدفق أكثر فأكثر، فتوهج حنا، أكثر فأكثر، وفي المقابل، كان منصور يراقبه، وهو يشعر بتسرب البرودة إلي أطرافه، فالجمرة المتقدة بدأت تنطفئ، وبدأ اللون الأحمر ينسحب منه بالتدريج، كأنما كان يتنازل عنه لحنا، واتخذ لنفسه لونًا جديدًا .. الأبيض

- أنا اتجمدت ...فووو ... برد

احتضن منصور نفسه وهو يرتجف، إلا أن حنا تكلم فـأذاب بعض الخجل..

- لو عاوز الشقة .. خدها

ثم وضع الكراسة جانبًا وسأله بخبث :

- لكن .. مين هي صفية ..؟!

obeikan.com

(٢)

فى الحقيقة، لم يكن حنا قد عرف امرأة أبدًا، ففى كل حياته تقريبًا، لم يتكلم ـ حتى ـ مع واحدة، إلا وردة، زميلته في الجامعة، زمااان، قبل عشر سنوات مضت، كانت تكبره بخمسة أعوام، رغم انهما التحقا بكلية الآداب في نفس السنة، لم تكن جميلة بالقدر الذي يلفت الأنظار إليها، تبدو نحيفة داخل فساتينها التي تكسوها بالكامل، وتختار طرحة الحجاب دائمًا بنفس ألوانها، تمشى بخطوات ثابتة وسريعة وهى منكسة الرأس، كأنها تراقب حذائها الكوتشى الذي لا يصدر صوتًا، ولذلك فهي – دائمًا – تباغتك بوجودها، دون أية مقدمات، وجدها حنا فوق رأسه، فجأة، وهو قاعد يومًا تحت جذع شجرة في الجامعة، كان يقرأ في رواية "اللص والكلاب" فسمع صوتها فوقه يسأل ..

- رواية حلوة .. ؟

نظر إلى غلاف الرواية، وإلى عنوانها، وكأنه يراها لأول مرة، ثم قال

- حلوة

اعتبرت وردة تلك الكلمة بمثابة دعوة، فقعدت بجانبه على الأرض، ثنت ساقيها تحتها، وفردت فستانها الواسع على النجيلة، ثم سألته لماذا هو أنطوائى بهذه الصورة، ولماذا لم يتخذ له أصحاب، فأجابها حنا ببساطة

- كدا أحسن

فضحكت، وقالت في محاولة منها لدفعه إلى الكلام، أنه ربما مصدوم بقصة حب فاشلة، أو بصديق خائن

فقال وهو يتحاشى النظر إلي عينيها

- لا

إذًا لماذا لا تتكلم كثيرًا، سألته، فقال إنه لا يجد كلامًا يقوله

كان يشعر بأن الملل قد بدأ يتسلل إلى عينيها، وخمن أن ردوده المقتضبة أحزنتها، أو جعلتها تشعر بالحرج، أو، ربما ندمت لأنها

obeikan.com

كلمته من الأصل، وأحست أنها تفرض نفسها عليه، فأراد أن يفعل أى شيء ليبدو ظريفًا، حتى لا يخذلها، لأنه شعر ناحيتها بالامتنان، ووجد قدرًا من المتعة وهى تمارس استبطانها لداخله، وفرح لأنها وضعته في محور اهتمامها، والناس في العادة لا يفعلون ذلك، ليس لديهم وقت، هم فقط يسألون عن أحوالك بالقدر الذي يطمئنوا به على أحوالهم، ولكن وردة بدت مختلفة، أسئلتها المتكررة كانت تعنى في ذهنه سؤالاً واحدًا..."هل يمكنني أن أساعدك...؟ " وهو يحتاجها فعلًا، رغم أنه لا يعرفها، وهى، في المقابل، لا تعرفه، ولكن سكوته المتكرر، منحها نفوذًا واسعًا، جعلها تستبدل النظرة البريئة بنظرة انتصار واثقة، فسمع حنا في نبرتها بعض السخرية ...

- الظاهر أنك مكسوف

لماذا ينبغي أن نرد ـ دائمًا ـ على الذين يكلموننا...؟

ولماذا يجب على الناس أن تتكلم كثيرًا...؟ فالكلام، في حد ذاته، لا يعنى شيئًا، ولا ينبغي أن نردده دائمًا، حتى لا نفسد معانيه، وتصير، من فرط قولنا لها، عادية جدًا، وتافهة جدًا.

أزيك، عامل أيه، فينك من الدنيا، وأيه أخبارك، أهلاً وسهلاً ...

obeikan.com

لوكلك ..لوكلك.. لوكلك

حاجة تقرف

والمشكلة الحقيقية أن ولا واحد، ممن يرددون هذه الكلمات، يقصد معناها الحقيقى، فعلًا، مجرد لغو فارغ تلوكه الألسن، وحنا يحتاج لآلية تسامر غبية، حتى يحكى لهذه البنت، التي لا يعرفها، ما يبهجها، وبما أنهما في السنة الأولى بالجامعة، سيكلمها مثلا عن سبب اختياره لتلك الكلية، ويقول أنه يحب الدراسة فيها، كما يقول الطلبة، في العادة، وسيقول أنه سيحب – فيما بعد – وظيفته أيضًا، كلية مرموقة، ووظيفة محترمة، وزوجة صالحة، وأولاد حلوين، وتعرفه هى، في المقابل، على أحلامها، فمن المهم أن نتعرف على أحلام الآخرين...

كلام فارغ، ليس له معنى، مجرد هراء

زعق فيها بحدة وغضب وهو يلوح بيده في الهواء ...

– مش عاوز أتكلم .. معنديش كلام

قالت في هدوء

– أنا آسفة

openkan.com

وعادت لعينيها النظرة المنكسرة، ثم قامت من جانبه وهى تهمس

- بعد أذنك .. مضطرة أمشى

هز رأسه، وهو لا يقصد بذلك شيئًا، مجرد هزة رأس، سمع بعدها حفيف فستانها الفضفاض الذى علقت به بعض الحشائش أثناء نهوضها، وتأملها وهى تبتعد بنفس خطواتها السريعة الثابتة، كانت منكسة الرأس، وخجولة، فبدون شك، اعتقدت أنه أهانها، وربما أحست أنه مجنون .

وجد حنا - في اليوم التالي - إنه من اللائق أن يعتذر لها، قال إنه كان متضايقًا، وحزينًا، وأضطر أن يؤلف قصة حارقة، حتى تتعاطف مع ضيقه وتسامحه، قال إن له عم يحبه مات، هذا ما خطر له يومها، فتأسفت هي بشدة، وبدأت تواسيه بكلمات باردة، ليس لها معنى أيضًا .

وفيما بعد، عرف إنها تعمل في صيدلية، بجانب دراستها، وإنها تكتب قصصًا غارقة في الوعظ الديني، كانت حريصة، في كل مرة، أن تشرحها، وتجره جرًا للكلام في الدين، وهو لا يحب ذلك، لأنه لم يفكر مطلقًا في الدين كمشروع للحياة، وعلاقته ظلت بدائية وبسيطة مع الله، ربما منذ الطفولة، فهو أبانا الذي في السموات، الذي ينفذ

openkan.com

مشيئته، تلك التي لا نملك معها، إلا أن نشكره، على كل حال، وفى كل حال، ومن أجل كل حال.

لكن وردة راحت تكلمه عن أمور جديدة، لم تشغل باله يومًا، وأعتبرها خارجة عن نطاق اهتماماته، المحدودة أصلًا، مثل أحكام النظر بشهوة إلى النساء، وسبل إقامة المجتمعات الأخلاقية القويمة، وجدوى قطع كفوف السارقين وجلد الزناة ورجمهم بالحجارة، كانت تتكلم وهي تشير نحوه بإصبعها قائلة " أنتم " وتشير إلى نفسها قائلة " إحنا " .

فعرف أنهما مختلفان ...

ذات مرة، وجد نفسه مدفوعًا للبوح، ولأن النفس أمارة بالسوء، أمرته نفسه أن يتكلم، فبدأ يحكي عن ذلك الإحساس الذي يشعر به دومًا، قال أنه يشعر كما لو كان مكلفًا بأمر عظيم، هدف سام، رسالة مثلًا، لابد أن يحملها إلى الناس، لا يعرف مضمون الرسالة بدقة، غير أن هدفها الواضح هو تصحيح خطأ ما قامت عليه هذه الدنيا، بالتحديد، يشعر أنه نبي .

انتفضت وردة كالملسوعة وصرخت

- حرام

قال إنه مجرد شعور، لا يعنى به شيئًا، وحكى لها عن الجنة التي رأها، محمولاً على أجنحة ملائكة صغيرة وحلوة، وقال إنه يشعر بأن هناك واجبًا نحو هذه الجنة، تلك التي يشعر بها قريبة منه، ولكنها لأسباب تافهة محتجبة عن العيون .

كانت وردة ترمقه بنظرات ساخرة، جعلته يسكت، ويندم، فهذا السر لم يبح به لأحد، حتى أوشك، هو نفسه، أن ينساه، وهذا ما جعله يفرح لأنها لم تصدقه، وراح ـ كالأبله - يضحك مع ضحكها، ليؤكد لها أنه يهرج، وكرر القصة من جديد، بصورة ساخرة ومشفوعة بحركات هازئة من يديه، كأنه يمثل كيف حملته الملائكة وطارت، ومر الأمر على إنها نكتة، ولم يعد يفتح هذا الكلام بعدها أبدًا.

obeikan.com

الأسد وحكاية الثعبان الأليف

obeikan.com

obeikan.com

(١)

- عشان عقلك مش فيك ..!!

قال منصور، يعزو عرج صاحبه إلى الشرود، فتذكر حنا إنه حكى لمنصور عن شروده، الشرود الذي صار يُدخله في غياب قهري، أو في حالة أشبه ما تكون بفقدان للذاكرة، تجعله في لحظة فجائية يسأل نفسه :

أين أنا...؟! أو من أنا...؟!

وهذه ليست أسئلة فلسفية للبحث عن الذات، بل واقع ملموس من التوهان الحقيقى، في الغالب، كان يدخله عندما يصحو من النوم، يرقد ـ في كل مرة ـ قرابة الساعة علي السرير، ويعتصر ذهنه، لعله، في النهاية، يكتشف طلاسم المكان الذي وجد نفسه فيه، يتأمل السقف

obeikan.com

والأثاث وصورته في المرآة، ويقوم متخبطًا كالسكران، يبحث عن باب للكابينة المصمتة الواطئة الواقعة في قعر الباخرة، يختنق من الرائحة الراكدة، ويسعل بكل قوته، عسي أن يسمعه أحدهم فيأتي ليثبت ذاكرته مكانها، يبحث خلف الستائر عن نسمة هواء، فلا يجد إلا نافذة دائرية تغمرها المياه، والناحية الأخرى كذلك، نافذة أخرى مصمتة تغمرها المياه، فيشعر بأنه محبوس فى بطن حوت، مع لعنة عظيمة وسوائل لزجة ورائحة عطن راكد .. كان يختنق.

- غيبة طويلة ..

بادره منصور قبل أن يسأل عن عرجه الظاهر

- ما لرجلك...؟

سكت ..

لم يقل إنه كان يتنصت علي عتبة باب جاره، إنما أستغل سكوته في أن يتأمل صاحبه القصير السمين، للحظة، كان سعيدًا بمقدار اللهفة التي أظهرها لما دخل إلي الدكان، غيبة طويلة، وساق مصاب، وحالة من التوهان، تأمل صاحبه، كأنه يراه لأول مرة، نظر إلي بنطلونه المتهدل

عند المؤخرة، تتدلي من عروته الجانبية سلسلة مفاتيح ثقيلة، تجلجل مهتزة مع كل حركة، ودقق في كرشه الضخم وصلعه الزاحف ورقبته التي اختفت تحت طبقات الدهن، ثم نظر إلي وجهه المدور وعينيه الصغيرتين، فأحس بأنه طيب، وشعر نحوه بحب كبير، ربما أكبر مما كان يتصور..

- مافيش .. خبطة صغيرة

وراح يعبث بكراسة الحسابات التي وجدها أمامه، وفي الوقت نفسه، أمسك منصور الريموت وهو يهز رأسه باستياء ..

- وصلة زبالة .. ولا فيلم أجنبي واحد...؟

ثم نظر إلي حنا في لهفة ..

- صحيح .. أيه حكاية الكيلوت دي...؟

أشار حنا بإصبعه إلى السماء ..

- وقع من فوق

ضحك منصور

- فال خير ..!!

obeikan.com

- ويمكن يكون رسالة من السما

أنفجر منصور ضاحكًا، وهو يشير بإصبع مهتز إلى وجه صاحبه الجاد، وراح يدق الأرض بقدمه ..

- رسالة .. السما .. الكيلوت

خخخخخخ

ضحك بشدة، وراح يسعل بعينين منتفختين ودامعتين، ثم بدأ في الانحناء متخليًا ـ بالتدريج ـ عن كرسيه، حتى أنتهي به الأمر متكورًا حول نفسه علي الأرض.

تأمل حنا صاحبه، الذي كاد يموت ضحكًا، وسأل نفسه "هل ما قلته يستدعي كل هذا الضحك...؟" أحس بالحرج، وتصور نفسه غبيًا.

- الله يلعنك ...كنت ها تموتني

صاح منصور، وهو لا يزال يمسك ببطنه، وكان قد هدأ قليلًا، وعاد ليسترد كرسيه من جديد، بينما بدأ حنا ـ كنوع من الهروب ـ في الانشغال بكراسة الحسابات.

- مين هي صفية ..؟!

obeikan.com

فى تلك الأيـام، تناثرت الشائعات بأن من أُخـرج من الحفرة، ليس صدامًا، إنما هو دوبلير يشبهه، وكانت فكرة جديدة، جديرة بالتأمل، ولذلك خطرت على بال منصور، حينما سأله حنا عن صفية، وهذا بالمناسبة ليس اسمها، إنما قد يكون اسم دوبليرها، هى أيضًا، هذا الذى يحمل عنها الآثام بقلب طيب، لأنه عندما لا يجد المرء من يفعل ذلك، فإنه ينقسم إلى شخصيتين، تتوارى الواحدة منهما فى نقاب الأخـرى، ثم تسدل على نفسها إسدالاً كثيفًا كالخباء، فتخلق بهذا فاديها، أو دوبليرها الخاص.

- شيزوفرينيا

- تماااام .. شيزوفرينيا

هكذا هى صفية، حينما تسدل إسدالها، وتحكم نقابها، تصير واحدة غيرها، دوبلير أسود، ليس له علاقة بمن يقبع تحت الملابس، فعندما تصدر دوبليرها، كواجهة، لا أحد يراها، ولا أحد يعرفها، كأنها تلبس طاقية الإخفاء، وهى، ما فعلت ذلك إلا من أجل تلك اللحظة المقدسة، لحظة الاختباء، حيث تفرض سيطرتها علي سلطان الخارج، بينما هي في داخلها شخص آخر، يحتمي بستر الخيمة السوداء، التي تنفضها كل

ليلة، فيتطاير الحياء وتذوب الذنوب، كى تتطهر، ويعود النقاء لسوادها الحالك، شيزوفرينيا، شأنها شأن كل شيء في هذه الأيام الغبراء .

- هي أم الشيزوفرينيا

سحب منصور نفسًا عميقًا من سيجارة الحشيش ..

- الهدوم .. يا ما بتخبى

- الهدوم ..!!

إن أكبر غواية، يمكن أن يتعرض لها الإنسان، هي المظاهر، وبالأخص، تلك المتعلقة بالملابس منها، ولذلك، كان حنا يعيش في شقته بصورة بدائية، فهو - مثلاً - لا يرى في ملابس البيت أى معنى، طالما يعيش وحده، فلا فائدة من التقيد بتلك القيود الاجتماعية، إلا عندما يقابل الناس، أو يمشي بينهم في الشارع، ولكنه أضطر أن يتنازل عن هذ المبدأ، عندما بدأ العمل علي الباخرة، فأشترى، لأول مرة منذ بلوغه، بيجامة كستور مخططة، والغريب، أنه لما لبسها، أحس بالخجل، كأنه لا يلبس شيئًا .

كان يجد في العرى راحة حلوة، تتناسب مع الأجواء البيتية، حيث يعيش

obeikan.com

أغلب حياته، في فلك نوح الذي صنعه لنفسه، وكان يحب هذه الحالة، يخلع كل ملابسه، وهو على مكتبه يكتب، أو مضجعًا ليشاهد التلفزيون، أو يأكل علي أرض الغرفة مفترشًا صفحة من جريدة قديمة، وفي بعض الأحيان، كان يضطر للبس الشورت الداخلى وحده، عندما يتضايق من الخصيتين المتدليتين، يحس أنهما يعوقان حرية حركته، ينضغطان بصورة مؤلمة عندما يجلس، ويتأرجحان بجنون وتخبط عندما يمشى، فضلاً عن أن الشورت يكسر تلك الصورة الغريبة، التي يرى نفسه عليها، عندما يمر أمام المرآة، حيث يرى نفسه حيوانًا همجيًا من عصر عتيق متخلف، ويفكر بأن الإنسان، باختراعه للملابس، وتخصيصها كميزة له وحده، خدع كل الحيوانات الأخرى، أوهمها بالاختلاف والتطور، فصدقت، وتركته يمسك زمام الدنيا.

- يعنى أيه ..؟

رفع كتفيه وبسط يديه في حيرة..

- واحدة كدة ..!

- مومس يعنى ..؟!

- آه .. بس ملتزمة حبتين

وراح يضحك ..

ولكن الوضع لا يقاس على هذا النحو الساخر، فالحقيقة، إنها كانت ملتزمة فعلًا، بل وصاحبة مبادئ حاسمة لا تحيد عنها أبدًا، على سبيل المثال، حينما اتصل بها منصور، قبل نصف ساعة من مجيئها إلى دكانه، وأخبرها إنه لن يتمكن من توفير الشقة، إلا بمشاركة صاحبها فى (الليلة) .. شخرت

-خواجة ..!!

ثم أعلنت أهم مبادئها على الإطلاق ..

-مش ممكن .. أنا ماليش فى النصارى.

openkan.com

(٢)

خواجة ..!!

متي سمع هذه الكلمة لأول مرة ... ؟

هناك أمور لا يحب حنا أن يبوح بها للآخرين، فشخص مثله، لا يمكنه أن يحكى بارتياح، وبدون خجل، أن شخص ما قد طرحه أرضًا بضربة قاسية من قبضة يده، حدث هذا فى يوم بعيد، بعيد جدًا، منذ ما يقرب من ٢٧ عامًا، كان وقتها طفلاً طيبًا في المدرسة الابتدائية، يغلب علي سلوكه الهدوء والصمت، وليس له صداقات قوية بأقرانه، إنما له عادات، يواظب علي تنفيذها كل يوم، منها على سبيل المثال أنه يمشي وحده، بعد انتهاء اليوم الدراسى، وهو يحصي خطواته إلي البيت، ناظرًا دومًا إلي الأرض، وحقيبته الجلدية الثقيلة معلقة علي

obeikan.com

كتفه، ولا يلتفت إلي صخب العيال وضجيجهم، بل يبدأ في العد بآلية وثبات، بداية من باب المدرسة، واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة .. وقبل خمس وخمسين وخمسمائة وألف من خطواته الصغيرة، بين شوارع ضيقة ودروب ثعبانية ملتوية، يجد باب عمارة الخبرا الحديدى أمامه.

في ذلك اليوم، وعند شارع جانبى صغير، كان يدخله، عادةً، وهو ينهي الخمسمائة الأولى من الخطوات، باغتته لكمة قوية علي فكه الأيسر، كان ينظر إلى الأرض، فلم يتبين ـ للوهلة الأولي ـ مصدرها، قوة اللكمة جعلته يصطدم بالحائط، وبسبب الحقيبة الثقيلة، اختل توازنه وترنح، قبل أن يجد نفسه منكفئًا بوجهه علي الأرض، تلتقط أنفاسه المتقطعة رعبًا ترابها الناعم، ثم تبين عددًا من الأحذية الصغيرة تلتف حوله ..

- آآآه

تأوه وهو يقرر، بينه وبين نفسه، ألا يفكر في الآتى، ولذا لم يرفع ـ علي الأقل ـ عينيه ليرى مهاجميه، ولكنه توقع من حركة الأحذية حول رأسه، أن واحد منهم بصدد رفعه، فأمتثل تمامًا لليد التي جذبته من شعره، إلي أن استقر جاثيًا علي ركبتيه.

- يا كافر يا خواجة .. يا أبن الكلب

قال كبيرهم وبصق علي وجهه

ثم أنحني وشده من شعره مقربًا وجهه جدًا من وجه حنا ..

- القسيس بيركب أمك في الكنيسة .. هيه .. مش كدة ..؟

تطلع حنا في وجوههم، وجوه مألوفة لتلاميذ في المدرسة، ومنهم واحد يزامله في نفس الفصل، وهذا بالذات، سبق لحنا أن أقرضه سندوتش، وربما لذلك يقف منزويًا، كأنه لا يتبعهم، هذا الزميل، صار الآن طبيبًا وأفتتح لنفسه عيادة في شارع السوق..

- أنتو عايزين منى أيه ...؟

وضع الكبير سن مسطرة بلاستيك، كان يمسكها، علي رقبة حنا، وقال بلهجة آمرة:

- أسلم

فسأله حنا :

- أزاي ...؟

غرس سن المسطرة في رقبته وهو يزعق :

obeikan.com

- قُل الشهادة

تردد حنا قليلاً قبل أن يسأله

- يعني أيه ...؟

- قُل ..لا إله إلا الله محمد رسول الله

لحظتها، أقترب زميل فصله، وراح يهز رأسه متوددًا، وبلهجة رجاء، ضيق بسببها عينيه، أخذ يتوسل لحنا وهو يربت علي ظهره بحنو بالغ :

- قُلها يا حنا .. الله يبارك فيك .. قُلها

تلعثم حنا...

- أشهد ..أأأ .. أأشـ....

بينما راحت العيون من حوله تشجعه ..

- أه ...قُلها ..آآآه ..أنطق

وحدث أن فتحت امرأة نافذتها، في نفس اللحظة، وأطلت علي المشهد، فصرخت:

- يا نهار أبوكم أسود

obeikan.com

وفي لحظة خاطفة، اختفت المرأة خلالها وعادت، وجد العيال فرد الأحذية تنهمر عليهم من النافذة، كانت تقذفها فوق رؤوسهم بقوة وهي تصرخ بحرقة:

- يا أولاد الكلب ...يا معدومى التربية

وقف حنا ينفض ملابسه، بعدما تركوه وجروا وهم يصيحون:

"يا خواجة فوت فوت ...بكرة ندبحك وتموت"

بالتدريج، أخذت صيحاتهم تخفت، إلي أن تلاشت تمامًا، عندها، كان حنا قد رتب حقيبته، قبل أن يعلقها علي كتفه، وكان قد قرر أن يتابع السير، دون أن يعد خطواته هذه المرة، فلم يكن ذهنه صافيًا لهذه الدرجة، إنما كان يفكر بأن النافذة التي فُتحت، ما هي إلا طاقة من السماء، وأن المرأة التي ظهرت، لم تكن سوي ملاكًا جاء لإنقاذه، وتأكد من ذلك حينما انفتح بجانبه بابًا، وفجأة، وجد المرأة أمامه، كانت سمينة بثديين ضخمين، تمسك بيدها دورقًا زجاجيًا به عصير ليمون، أشارت له، فأقترب، ناولته كوبًا، دلقه في جوفه دفعة واحدة، فناولته آخر، إذ بدا أن محنته لم تجفف ما في جسمه من سوائل فحسب، بل وجففت دمه أيضًا.

إلا إنه كان متماسكًا، بالرغم من الألم الفظيع الذي يفتت ركبتيه، ولم يتوقع إنه سينهار تمامًا، عندما تحتضنه المرأة، وأن تماسكه سيذوب كالشمع في حرارة ثدييها العظيمين، وكأنما كان يحتاج لذلك، حتى يفتح مغاليق روحه، ويندفع لإراقة كل ما في دمه من كبرياء، غصبًا، في نشيج مكتوم وحارق.

رجع منصور بظهره علي الكرسي وقال ..

- ياااه .. دا أنت تعبان طحن

ثم ضرب كفًا بكف ..

- أما كيلوت هزك كدة ..أُمال بتعمل أيه قدام مايوهات الباخرة..؟!

للحق، أحتاج حنا وقتًا طويلًا، قبل أن يعرف أن علي الباخرة بشرًا غير عمالها، وغير تلال الأكواب والكؤوس والأطباق والملاعق والشوك والسكاكين، وكل تلك الأشياء اللانهائية الجبارة، التي لم يكن يرى في الباخرة سواها، كان يغسل، في اليوم الواحد، آلاف الكؤوس، ويلمعها، بشرط ألا يترك عليها بصمة واحدة من أصابعه، ثم يطلقها بغير وداع، لأنها ستعود سريعًا إلي الحوض، أمامه، مرة أخري، في دورة لا تنتهى

obeikan.com

إلا بانتهاء الصخب الموسيقى الراقص، الذي لم يكن يفصل بينه وبين حنا، سوي طاقة صغيرة، تمتد منها الأيادى لتسحب ما يغسله تباعًا، وتدفع بما سيغسله تباعًا، فلم يكن مسموحًا له بمغادرة الـ "back area" أو المنطقة الضيقة الواقعة خلف البار، ٣ متر × ٢ متر، والتي يكتظ فيها، بالرغم من ذلك، غسالة الأطباق وثلاجتين ومبرد مياه وماكينة أخري تقذف بمكعبات الثلج الجاهزة في الكؤوس، وهو واقف، في مساحة تكفي بالكاد لحذائه، واقف طوال اليوم، وعروق الدوالي تنتفخ وتتمدد علي ساقيه وتتلوي كثعابين زرقاء صغيرة تحت الجلد.

- مايوهات ...؟!

قال حنا مستنكرًا وهو يشيح بيده في وجه منصور ثم هز رأسه باستياء ..

- مايوهات أيه يا عم الحاج...؟!!

لو أنصفوا، فواحد مثل حنا، كان يجب أن يُفصل من عمله، منذ زمن طويل، ولكن لأسباب شخصية، بعضها اضطرارى، استبقاه المتر عاطف، الذي بخبرته، وببعد نظره، أستشرف الكارثة التي من الممكن

أن تحدث، لو تعامل حنا مع النزلاء الأجانب، بحركاته المرتبكة ومزاجه الكئيب وخجله المستوطن، فضلاً عن عناده العظيم، الذي يأبى له أن يتعلم شيئًا، ويباعد بينه وبين الكوانتر المهيب، ذلك الذي يقف المتر عاطف وراءه كالأسد موزعًا قفشاته المضحكة علي الجميع، وهو يقدم لهم الكؤوس، بحركات بهلوانية، تتطاير خلالها الملاعق والسكاكين من بين يديه، آه، كأنه ساحر ببدلته السموكن وبيبونته السوداء.

قال منصور:

- أسمع...

ثم قام من كرسيه ومشى ثم وقف في وسط الدكان، وقال بلهجة مسرحية وهو يفرد ذراعيه كمن ينتظر حضنًا ..

- أيها اللص المسكين .. اليوم ستكون معي فى الفردوس

أخرج الموبايل من جيبه، وبحث عن رقم صفية، قبل أن يضعه علي أذنه ويخرج من الدكان ..

.. بعدها بدقائق عاد مبتسمًا وهو يغمز لحنا

- خلاص .. وافقت

obeikan.com

إذا كان لابد لك من السقوط، فأترك نفسك تمامًا، ولا تقاوم، حتى لا يكون سقوطك مضاعفًا، فلا تدع عضلاتك تتشنج، ولا تفكر فيما قد يحدث بعد السقوط، هى وقعة والسلام، دعها تحدث لجسدك، وأحتفظ بروحك بعيدًا.

- خلاص .. وافقت

كرر منصور

ولم يرد حنا أيضًا ..

كان يفكر في والده، الدكتور دميان، الطبيب البيطرى، كيف كان يعيش هذا الرجل...؟ كان كبندول الساعة، لا يحيد عن مساره أبدًا، يتقدم بهدوء، تكة تكة، إلي الأمام، عجيب هذا الرجل الذي كان يحمل في جيبه دفترًا أصفر، دومًا كان في جيب قميصه، ناحية القلب، اعتاد قبل موته أن يدون فيه خطاياه، حتى يتلوها بيسر علي الكاهن في الاعتراف، ولم يكن ذلك للتغلب على النسيان، بقدر ما كان نابعًا عن رغبة حقيقية في ممارسة الدقة اللائقة، التي يجب من خلالها أن يتحاسب مع الرب، فكر حنا، إن لم تكن خطايا والده أمرًا تافهًا، ينبغى لتفاهتها أن تدون، لأنها، لتفاهتها أيضًا، جديرة بأن تنسى، فما حاجته لأن يقرأها، شرب

obeikan.com

سيجارة يومًا تحت وطأة إزعاج العمل، اضطر أن يسب مديره في سره مرة، شتم الجزار والبقال لجشعهم الدنيئ ورغبتهم في استغفاله، لعن غباء أبو الدنيا في لحظة ضيق خاطفة، هو عارف لنوعية خطايا أبيه، لن تكون أشد وطأة من ذلك، كان قديسًا، وهذا بالذات ما يؤلمه، كان يقول لأبيه في نفسه "لقد جاء اليوم الذى أدنس فيه بيتك وفراش عُرسك، أنا الخاطئ، جميل أن تكون الآن ميتًا، ذاك أفضل جدًا".

صاح منصور بنفاد صبر..

- أنت يا عم ..بقول لك وافقت

- وافقت..؟!

أرتمى منصور علي كرسيه، وكأنما يكلم أحدًا غيره...

- تمنعت شوية

وسكت لحظة قبل أن يستكمل...

- ولكنها وافقت

إلا إنه لم يقل لماذا تمنعت في البداية، ولم يسأله حنا كذلك، لأنه لم ينشغل إلا بتلك الكآبة، التي غلفت الكون حوله فجأة، وجعلته يضيق

obeikan.com

ويضيق ويعتصر صدره عصرًا، فتتساقط من رئتيه زفرة حارقة...

يا الله...

لو تعبر عني هذه الكأس ..

- حاسس أن تعبان كابس علي صدري

- ما لك...؟

- بفكر في قصة جديدة

- قصة جديدة...؟!

- أسمع...

يرى الإنسان، بعينه القاصرة، أن كل ما فى حياته من آلام، مجرد ظروف مؤقتة، أو حالة طارئة، بالرغم من إنه لا يرى أن حياته ـ نفسها ـ كذلك ..

- عارف ليه ..؟

- ليه ..؟

لأن هناك اختراعًا مذهلًا، يشبه حشيش سيجارتك، أسمه الأمل،

obeikan.com

ولذلك لا تندهش لو استيقظت يومًا، فوجدت ثعبانًا جاثمًا علي صدرك، ستصبر، ولابد لك أن تفعل، لأنك تعرف أن أية حركة ليست في صالحك، فربما ينزعج الثعبان، ويبدأ في الهجوم مع أول مبادرة صراخ، أو حركة، فلا تتحرك ولا تتنفس، وتصالح مع وضعك، الذي تظنه طارئًا، وأتخذ الثعبان لك صاحبًا، حتى ولو أفقدك يومك، وغيب عنك شمسه، أصبر، أصبر ونم، فالنوم سنة الحياة، مثل الموت تمامًا.

- يخرب بيتك...!!

صاح منصور، هو أيضًا يشعر بنفس الحالة، كما لو كان حجرًا ثقيلاً جاثمًا فوق صدره ..

- بُص .. بُص

أمسك الريموت، ورفع درجة الصوت، ووهب نفسه تمامًا للمشهد ..

يا الله .. أسد يأكل بني آدم...!!

يلتهمه التهامًا مؤثرًا، يقبض بفكيه علي رقبة المسكين، فتختلط التأوهات بالزمجرة بصرخات فزع آتية من بعيد، وكانت الكاميرا في يد المصور تهتز، فيهتز الكادر المزعج كأنه حلم، وبينما يتابع

obeikan.com

منصور المشهد، بنفس حماسة متابعته لمباراة بين الأهلي والزمالك، كان حنا مضطربًا، يشعر بأن صدره ينقبض، وملامح وجهه تشكلت بتعبير اشمئزاز لا مثيل له، جعله يهب نفسه تمامًا للحظة تأمل نادرة، قبل أن يتبين أن المشهد حقيقيًا، وليس مشهدًا من أحد أفلام الغابات الخيالية ..

وفجأة ..

دخلت صفية .. كشبح أسود

obeikan.com

(٣)

خبطت يدها علي صدرها ..

- يا خرابى ..

حاول حنا أن يخمن تعبير وجهها، فلم يتمكن، ولكنه رأى أن صرختها لا تعنى شيئًا، إلا محاولة للإعلان عن حدث مجيئها، الذى سحبت أجواء الافتراس البساط منه، وهذا طبعًا، لم يرضها، كانت بصرختها كمن يقول : أنا هنا ..

وحنا كذلك ..هنا

لمحته صفية فور دخولها، ولكن، بعين مختلفة ..

لمحته يجلس منزويًا في ركن الدكان، بظهر مستقيم، شبه متخشب،

obeikan.com

ياقة قميصه الأبيض متسخة من العرق والغبار، وأزرارها مقفولة كلها، حتى الرقبة الغليظة بعض الشيء، وفوق القميص بلوفر من الصوف الخفيف، لونه رصاصى باهت، يتناسب مع لون البنطلون الجينز الداكن، الذي لا يمكن تقييم مدي نظافته، ولكنه يُظهر إلي حد كبير مدى سوء حالة الحذاء المترب، الذي يعلوه- فى أكثر من موضع- الطين الجاف.

همست ..

- يا حسرة...!!

وتساءلت، بينها وبين نفسها، ألا يكسب من عمله بالسياحة، فلماذا لا يشترى لنفسه قميصًا جديدًا...؟!

ثم قالت لمنصور وهي تقلب يديها ..

- شكلها ناشفة...!

أنتحى بها منصور جانبًا، وهو يهمس في أذنها، ثم أخرج كتالوجات العطور، وبدأ يستعرض صفحاتها أمامها، كان يدعى إنه يبيع، وكانت تدعى إنها تشترى، بينما راح حنا يدخن وهو يحملق في الشاشة المضيئة

obeikan.com

بألوانها المهتزة متخذًا لنفسه سمت الضيف المحايد، وهو يكاد ينفلق من الملل، خصوصًا، بعدما عادت المشاعر فى داخله تضطرب من جديد، بين حزن وقرف وآسي ولوعة، وبدأ يفكر بأن الإنسان لابد وأن ينقرض من هذا الوجود، طالما هو ضعيف لهذا الحد، فلماذا إذن بقى، بينما أنقرض الأقوياء..؟

تمكن من الإجابة علي هذا السؤال، في نظرته الثانية أو ربما الثالثة لصفية، إذ أنه أطمئن إلي أن الإنسان قد أنقرض فعلًا، فمن هم موجودون الآن مجرد مسوخ، تمكنوا، ببعض الحيل الدنيئة، ألا ينقرضوا.

كان حنا شديد البغض لجنس البشر، لا يؤمن بإمكانية الإصلاح، أو حتى جدواه، الحل ـ فى نظره ـ يكمن فى نيران صاعقة تنزل من السماء، وتقضى على الكل، وينتهى الموضوع، كى يعاد تشكيل العالم من جديد، بنظافة، كما حدث فى طوفان نوح، ولكن ينبغى، هذه المرة، أن يكون هناك معجمًا كونيًا للغة مشتركة بين البشر، يعرف الإنسان الجديد مفرداته بالفطرة، فيفهموا بعضهم بعضًا، الاختلاف رحمة، صحيح، إلا في القيم المطلقة، التي لا تقبل تزيفًا، بشرط أن يكون

المعجم جامعًا، بحيث يشمل كل البشر علي اختلافاتهم، ومانعًا حتى لا تختلط المفاهيم مرة أخرى، فالدين دين، والحق حق، والخير لا يرتدى ثوب الخبث أبدًا.

ولكن هل هذا وقته...؟!

منتهي العبث...!

يهدم الدنيا فى طرفة عين، ثم يُقيمها بكلمة، وهو علي هيئته هذه، التي تفتقر لمرآة البشر الذين يبغضهم، حتى يعرف مدي تفاهتها، ومدي قذارتها، يجلس منزويًا ومتخشبًا ومختنقًا بياقة قميصه الوسخة، في دكان حقير مترب ومعبق برائحة عطن الخضار الفاسد، صاحبه لا يفكر إلا بتدخين الحشيش وركوب النساء، دكان يقع فى مدينة منسية على ذيل الخريطة، يستخدم ناسها النافورة كمسقي للبهائم.

هل هذا وقته...؟!

وهو على أعتاب نكاحه الأول، الذي جاء متأخرًا جدًا، وبالرغم من ذلك، جاء دون إرادته، فهو لم يوافق، إنما ـ بالأدق ـ أستسلم، كما هي عادته، مُهيئًا نفسه للحظة التراجع الأخيرة، التي لن تأتى، فمن يضع

يده علي المحراث لا ينظر إلي الوراء، وهذا ما تيقن منه الآن، تحديدًا، الآن فقط، حينما انتهت مشاهد الافتراس، وبدأت الإعلانات التافهة، بينما صفية لا تزال زبونة، أدرك حنا هول قراره، حيث بدأت أمعائه تتقلص، وريقه يجف، ثم شعر أخيرًا بمغص عنيف، جعله يسب طراوة مشاعره، ويحنق علي شخصيته المهتزة، ويتساءل: لماذا لا أكون كمنصور جريئًا...؟! وفكر بأن حظه في الدنيا قليل لأنها تُؤخذ غلابًا، ولم تكن يومًا بالتمنى، الذي لم يقم، طوال حياته، بفعل غيره.

تُري كيف تبدو صفية وهي مجردة، هكذا، بدون خيمتها السوداء...؟!

obeikan.com

(٤)

سيحدث ذلك علي النحو التالى :

يعود حنا إلي شقته، وصفية وراءه، بينها وبينه مسافة، بشرط أن تكون كافية لإبعاد الظنون الشريرة، وبينما يدخل هو بشكل طبيعى، تتسلل هى، بحيث لا يراها أحد، من باب عمارة الخبرا، وسيترك لها باب الشقة مواربًا، حتى تمرق كالسهم، يقضي معها وقته، بحيث لا يتجاوز الساعة التاسعة، ثم يتركها، ويترك الشقة كلها متجهًا إلي الباخرة، التي لن تغادر المدينة إلا فى الصباح...

- ساعتها أطلع أنا...!!

قال منصور وهو يغمز بعينه اليسرى ..

obeikan.com

ثم تمم علي كلامه باسطًا يديه أمام وجهيهما ..

- خلاص ..اتفقنا ..؟!

هكذا تلاحقت الأحداث، بصورة لم يتوقعها، فهو لم يفعل شيئًا، إلا أن عاد فى إجازة، بعد غيبة طويلة، ولكنها ليست أطول من ساعات هذا اليوم الغريب، الذي لا يريد أن ينتهى، ككل الأيام، وهذا هو الجحيم بعينه، أن تشعر بأن أيامك بطيئة، لا تمر، ولا يختلف شعورك كثيرًا، إذ ما مرت أيامك بسرعة، لأنها تتلاشى كما يتلاشى الماء بين يديك، دعها، إذن، تتهادى، وتتبختر، كما تتبختر صفية الآن في مشيتها وراءه.

وهو، حنا، يمشى كأنه لا يمشى، بل يزحف، يجرجر رجليه جرجرةً سخيفة، لا كمثل عرجه الأول، الذي جاء به إلى الدكان، إنما كمثل واحد يكسح التراب بحذائه كسحًا، مثيرًا زوبعة صغيرة من الغبار، تتصاعد كالدخان من أسفل ساقيه، فبدا، من بعيد، أو من عين صفية تحديدًا، كصاروخ علي وشك الانطلاق نحو السماء، وفيما بعد، قال أحد أصحاب البازارات، التي مر عليها في طريقه، إنه كان يسير كنعجة مساقة للذبح، يرفع رجله بمشقة، ولا يريد أن يتقدم، كأنه مدفوع بالغصب للعودة إلى بيته.

كانت الساعة تشير إلي السابعة، وكان الجو حارًا خانقًا، وهذا ـ أيضًا ـ مما يثير الدهشة، ليس الجو، إنما الساعة، فها هو يعود إلي شقته، بعد ساعتين من نزوله منها...

هل حدث كل ذلك فى ساعتين...؟!

ما له هذا اليوم...؟! هل أقسم ألا يمر...؟!

كان يحاول أن يبدو عاديًا، رغم أن وجهه لا يوحى بذلك، بل يوحى بالشرود التام، لدرجة إنه كان بصدد أن يشعل سيجارة الحشيش، التي أعطاها له منصور، بدلاً من أن يشعل سيجارته العادية، كان قد حشرها في العلبة، ونسى، فاستقرت بين سجائره، ولم يلحظ أنها منفوخة أكثر مما ينبغي، عندما وضعها بين شفتيه، لاحظ ذلك ـ فقط ـ عندما قرب من رأسها الولاعة بعد مرور عدة دقائق.

آآآه

هل رأها أحدهم وهي بين شفتيه...؟!

مصيبة...!!

أما المصيبة الأكبر، فهي فقدانه السيطرة علي رأسه، التي كانت

تستدير، رغمًا عنه، كطبق الدش، وتتحرك بآلية إلي الخلف، لتلتقط صورة خاطفة للخيمة السوداء التى تقتفي أثره، ثم تعود مجددًا إلي وضعها الطبيعى.

يحدث هذا كل بضع دقائق ..

كان منظره مريبًا ..

لا لغباء أصيل في طباعه، إنما لأنه، دومًا، كان مثل الكتاب المفتوح، لا يمكن أن تستغلق عليك سطوره، لا يكذب، ليس في كلامه فحسب، بل في مظهره أيضًا، تعبيراته، حركات يديه، طريقة سيره، ونبرات صوته، باختصار، كان عدوًا لذات نفسه، إذا أقترف ذنبًا، يتحول بكل كيانه إلي إصبع اتهام، ويشير إليها.

فضلاً عن شعوره بأن هناك عيون تترصد خطواته، وهذا ليس هاجسًا مرضيًا، أو وسواس قهريًا، لا سمح الله، إنما هو أمر طبيعى، يحدث لكل واحد يعيش بمفرده فى هذه المدينة، أو بتعبير أدق، يعيش في حاله، فلم يسبق أن رد تحية أحدهم، ولم يقل لأحدهم، في يوم من الأيام، السلام.

obeikan.com

كان عليه أن يراعي قوانين المدينة، طالما قد قبل أن يعيش فيها، بالرغم من إنه لم يُخير ـ أصلاً ـ بين العيش فيها، أو العيش في غيرها، لقد وجد نفسه هنا، منذ مولده، ولم يشعر بكل تلك السخافات، إلا بعد موت أبيه، هذا الذى كان يغنيه عن القوانين، ليس في المدينة وحدها، بل في الدنيا كلها، فلم يكن مضطرًا أن يجامل فى الأعراس، أو أن يُوجب في المأتم، أو أن يهنئ في الأعياد، كان يعتبر كل ذلك من التفاهات، وهذا قد يستفز البعض، وقد يعتبره، البعض الأخر، نوعًا من التعالى، الذي لا لزوم له ولا معنى ..

- هو فاكر نفسه مين...؟!

هكذا يقولون، والغضب يفور في نفوسهم، ويمتزج مع حقد أصيل، لا يمت لشخص حنا بصلة، هذه المرة، إنما ينصب بالأساس علي شقته، هذه الشقة التي تمرح فيها الخيل، المطلة علي النيل، له وحده، يعيش فيها كالكلب، دون زوجة، بينما أعتاهم، وجاهةً ونسبًا، لا يملك جحرًا يتزوج فيه...

- صحيح...يعطي الحلق للي بلا ودان

قال أحدهم، ذات مرة، وهو يتغامز، فأثار عاصفة من الضحك، لقد

obeikan.com

فهموا جميعًا ما يقصده، فإذا كان الحلق يعني الشقة، التي رغم توفرها لا يريد حنا أن يتزوج، فما الذي تعنيه الـ (ودان)...؟!! وما الذي ينقصه ـ بالضبط ـ كي يتزوج...؟!

لقد فهموا ما قصده صاحبهم الماكر، وبالرغم من ذلك، كرر آخر كلامه وأكده...

- الظاهر انه مالوش في الحريم

كانوا فقراء، ومثلهم مثل من في أعمارهم، صار الزواج بالنسبة لهم حلمًا، ليس مجرد خطوة في الحياة، إنما أقصى أمانيها، فمن أين لهم بالشقة، وبالمهر، بل من أين لهم بالوظيفة ـ أصلاً ـ التى ينفقون من دخلها على بيوتهم الجديدة ..؟

وطبعًا، لو قدر لهم، أن يسمعوا سبب عزوفه عن الزواج، لشدوا شعر رؤوسهم، ومزقوا ثيابهم، وجروا في الشوارع كالمجانين، ولكن، الحمد لله، ليس منهم من ينوى أن يسأله، وحنا ـ بالطبع ـ لن يقول، فهو غافل تمامًا، وبعيد تمامًا، لا يسمع ما يقال خلف ظهره، ولا يدرى أن حياته، صارت علكة في أفواه الناس.

obeikan.com

لم يفكر حنا في الزواج، بالرغم من أن قس الكنيسة، قد سبق وأن عرض عليه عشرات البنات المحترمات، ليس حبًا فيه، فهو في نظره لا يستحق، هذا الولد المارق غير الملتزم دينيًا، فلا صلاة ولا اعتراف ولا تناول، وبلا شك، من يبحث وراءه، سيجده غير ملتزم أخلاقيًا، طالما يعمل بارمانًا ولا يريد أن يتزوج، قائلًا، إن الزواج لن يفيده في شيء، لأنه رتب أن يملأ حياته بدونه، هكذا، وما الذى يمكن أن يملأ حياة المرء، غير المسيح فيترهب، أو الأسرة فيتزوج، ولد مجنون بصحيح، إنما إكرامًا لذكرى والده الراحل الدكتور دميان يهون كل شيء.

إذن كيف يمكنه أن يرضى الناس...؟!!

ولكنه لا يفكر في إرضائهم، إنه يبغضهم، ويبغض نفسه أصلًا، ويرى أنه غير مضطر لأن يضيف إليها نتوءً غريبًا، لا يعرف ما ينتج عنه إلا الله، فكيف له أن يتزوج، الواحد لا يطيق نفسه في هذه الدنيا، فكيف يطيقها لو أنقسم إلى أثنين.

هو حر، ليرى ما يراه، والناس أيضًا أحرار، في أن يتتبعونه بعيونهم، التي يشعر بها تخترقه، ولكنه لا يصدق أنها تفعل ذلك ..

معقول..؟!

لا طبعًا .. ما لهم وما لى ..؟!

كان ينسب هذا الشعور، لا لتتطفل الناس، إنما لخلل ما في شخصيته، هو، فيضيف، ذلك، علي خجله المزمن، خجلاً جديدًا، يجعل أغلب حركاته مضطربة، وسلوكه مرتبك، فحركة هذه الرأس الكبيرة، التي تشبه طبق الدش فعلًا، لا يمكن أن تخطئها عين، فضلاً عن مشيته، وهذه الخيمة السوداء التى تتبعه، تنحرف إذ ما أنحرف، وتستقيم إذ ما استقام، والناس التي أعتقلها الغبار في البيوت، خرجوا جميعًا، كأنما لينتقموا، بعدما ذهب وذهبت معه الرياح، وحل سكون، لا يعكره إلا الزحام، خلق لم تعهده المدينة، يملأ كل الشوارع، والمصاطب، وعتبات البيوت.

لكن، فات وقت الرجوع، فقد وضع يده علي المحراث، وعليه أن يتقدم ..

همس لنفسه ..

- يا رب .. لتكن مشيئتك

ثم دخل من باب العمارة، كان قلبه يدمدم، كأنه سينفلت من بين

ضلوعه، ولكنه صعد السلالم بهدوء، وقد رفع رجله، تمامًا، عن الأرض، وراح يخطو كأنه يمشى علي شظايا من زجاج، ورغم ذلك، سمعته سعاد بنت البواب، كانت جالسة علي دكة تحت السلم مباشرة، تُفلى صغيرها النائم فى حجرها، ولذلك احتاجت لبعض الوقت، حتى تبعد رأسه عنها بهدوء، قبل أن تسوي له مكانًا علي الدكة، وتقوم ..

لم تلحق بحنا، ولكنها رأت ظله، يتسلل كشبح وراءه، ثم سمعته يفتح باب الشقة، ولم تسمعه يقفله، وهذا لا يعنى، بالنسبة لها، شيئًا، فهي ليست ـ هنا ـ مكان والدها لتراقب الناس، إنما لاحظت تلك الأمور الصغيرة، بدافع من ملل وفراغ شديدين، يكتنفانها منذ الصباح، وهذا ما جعلها شديدة الملاحظة، ليس إلا، ويكفى إنها ظلت لثلاث ساعات باركة علي الدكة، حتى ظنت إنها لن تقوم، إلا مشلولة، فوالدها البواب غائب، لم يعد بعد، من عند زوجها الذي رمى عليها يمين الطلاق الثانية، ليلة أمس، وطبعًا، ليس هناك من يرضى بخراب البيوت، حتى لو استلزم رد المرأة إلي زوجها، طاقة تكفي لنقل جبل المقطم، كله يهون، إلا تشريد العيال، وما الذى بين هذا وذاك إلا الكلمة...؟! كلمة وردها، يشدها واحد، ويجذبها آخر، أو يقذفها واحد، ويتقيؤها أخر، ولكنها، في كل

الأحوال، كلمة، لا يهم أن ينفق البواب وزوج أبنته اليوم في تكرارها، وتنفق سعاد، هي الأخرى، يومها في انتظارهم، وهي تكاد أن تنفلق من الملل، يوم يصرفونه في الخير، ألم يتكرر هذا اليوم، نفسه، في الطلقة الأولى، وتكرر نفس الكلام، بنفس الطريقة، وخلال نفس الوقت...؟!

كانت مشغولة، تستند علي درابزين السلم، وتفكر ..

وفجأة دخلت صفية ..

دخلت بثبات، ولم تتراجع، أو حتى تخفض من سرعتها، بل اندفعت إلي السلم، ولم تعبأ بسعاد الواقفة أمامها، التى بدورها لم تتجاوز تلك الإهانة، فاستخدمت سلطتها، كبنت البواب، في أن تسألها ..

- طالعة لمين...؟

إلا إنها لم تنتبه لما قالته صفية بالضبط، لأنها قالته بصوت ضعيف، وهي تتقافز طالعة السلم، ولم تتوقف، كأنها علي عجل من أمرها ..

ولكنها سمعتها تقول (خالتي)...

ولكن هل قالت (حنا) ...؟!!

لا طبعًا...!!

obeikan.com

بل قالت (هنا)...!!

إن الكلمات تختلط عليها من فرط الضيق ..

لعلها تقصد أن خالتها تسكن .. هنا

يجوز ..

ويُحتمل إنها كانت تشير إلى أم حسين، فربما تكون واحدة من أقاربهم،

يجوز ..

- أووووه .. ودة وقته...؟!

يكفى ما هى فيه أصلًا، فلا ينقصها انشغال البال، خصوصًا، بعدما سمعت - فى نفس اللحظة - صوت صغيرها وهو يستيقظ، فتوجهت إليه، قعدت علي الدكة، ووضعت رأسه علي حجرها، وأنامته من جديد، وهي تداعب شعره وتفكر، هل سيردها زوجها هذه المرة..؟ إنها علي كل حال لم تكن المخطئة، البيت، المصاريف، والعيال، هموم هموم هموم، لم يعد في الدنيا ما يسعد البنى آدم، كلها قرف.

ولكنها متأكدة إنها سمعتها تقول "حنا" ..!

وربما قالت "خالتى" وأتبعتها بـ (أم حنا) ..

obeikan.com

هل تقصد أم حنا التي ماتت بعد ميلاده بعدة أيام ..؟!

لحظتها .. دهمتها صورته، وهو ينزل خائفًا ملهوفًا، قبل أن يتعثر بدرجات السلم ويلتوى كاحله ثم يسقط علي وجهه، وصورته أيضًا وهو يطلع السلم متسللاً كلص، لا يظهر منه غير ظله.

أية شقة ..كانت تقصد..؟ سنرى، على العموم، هى لا تزال في العمارة ..

وبلا وعى، شدت شعر صغيرها النائم، فأن أنينًا خافتًا، ثم غاص داسًا رأسه فى حجرها ..

قالت:

- وساخة

وهي لا تزال تفكر .....

obeikan.com

obeikan.com

الآكل والمأكول

obeikan.com

(١)

الباب موارب ..

ولا أحد في انتظارها ..

دخلت ..

راحت تنظر بذهول إلى الحيطان الباهتة، قبل أن تُلفت نظرها صورة معلقة لعروسين، صورة قديمة مغبرة وإطارها مكسور، رفعت نقابها الذي لم يعد له فائدة الآن، ثم نظرت ببرود إلي عينى العروس، فردتا العينان النظرة ببرود أكثر، تجاهلتها، والتفتت إلي الجهة المقابلة، حيث الساعة الخشبية التي توقفت عقاربها وسكن بندولها، ربما منذ سنوات، لم تكن قد رأت ساعة مثلها، إلا في الأفلام القديمة، الأبيض والأسـود، ولذلك بـدأت تشعر بخوف يتزايد كلما تطلعت إلـي حالة

obeikan.com

الصالة، بشكل عام، فكل شيء ليس قديمًا، أو مهجورًا، فحسب، بل بلا روح أيضًا، رائحة العطن الراكد الناتجة عن دخان السجائر وسوء التهوية، ستائر الدنتيلا الرمادية الذابلة، ومروحة السقف التي تدور بصرير كئيب، كأنه أنين مريض يحتضر، ومع دورانها المهتز تتخيل - بين لحظة وأخرى - إنها ستسقط، فضلاً عن طاقم الجلوس الذي لم يعد مذهبًا، بل أصفر باهتًا، ويبدو أن أحدًا لم يجلس عليه منذ سنوات، فحشيته تخرج كأحشاء حيوان ذبيح، والأدهى، تلك السفرة العريضة التي ترزح تحت ثقل ما عليها من أشياء، أشياء صغيرة وتافهة، ليس لها معنى، وليس بينها رابط، حنفية مكسورة، راديو خربان، أوانى مطبخ، فردة حذاء، وكتب، أكوام من الكتب، مرصوصة تحت وفوق وجنب بعضها، وهذا - بالذات - رفع خوفها إلي درجة الهلع...

فجأة، وبينما هي منهمكة، هكذا، تتحسس الكتب، في محاولة للسيطرة علي خوفها، ظهر حنا، وجدته أمامها بشعره المنكوش، وببلوفره الرصاصى، وبقميصه المقفول حتى الرقبة، فذعرت، واقشعر بدنها، قبل أن تطلق صرختها اللازمة الأثيرة ..

-يا خرابى

obeikan.com

وهي تدق بيدها على صدرها طبعًا، فهذه الحركة، وتلك الصرخة، دويتو معروف، لازمة تكررها دون إرادتها، علي اختلاف مقاصدها، فهذه المرة ـ مثلاً ـ ليست مائعة كالسابقة، بلا تلكؤ أو رخاوة، إنما جاءت كصرخة لا شعورية خاطفة، تطلب النجدة، بنبرة جد لا هزل فيها ..

تراجع حنا خطوتين مضطربًا، فزفرت صفية بضيق ..

- أعوذ بالله .. خوفتنى

لم يقل شيئًا، بل تسمر في مكانه، كطفل مذعور، ولم يثبته ـ هكذا ـ خوفها، أو صرختها، تلك، التي تطلقها بمناسبة أو بدون مناسبة، إنما ثبته وجهها الذي أنكشف أخيرًا، فهو لم يصنع لها رسمًا في خياله، ولم يفكر في ذلك من الأصل، فقد ظلت، هناك، مجرد فكرة، فكرة بعيدة، مغامرة ذاتية من طرف واحد، ليس إلا، مغامرة يكون الطرف الآخر فيها غائبًا وحاضرًا، في آن واحد، كالخيال، كالإستمناء، على العموم، هو تقبل ـ منذ البداية ـ أن يكون هناك طرفًا مفقودًا، مشتر وبائع بينما البضاعة غائبة، أما الآن، وقد أصبح للخيال وجهًا، لم يستطع منع نفسه من الدهشة..

شابة فى منتصف العشرين، ينفرج فمها الواسع عن فكين كبيرين، فيختصر الوجه كله في إبتسامة بلهاء لا معني لها، إبتسامة دائمة ولكنها لا تعبر عن السعادة، إنما تشي بقدر من العبثية، أو الإستخفاف بالحياة، وبالمبادئ والقيم، وعلي الرغم من ذلك، فهى ليست دميمة، بل يمكننا أن نرى في إبتسامتها الإجبارية، تلك، نوعًا من الحميمية التي تزلل عقبات اللقاء الأول، دعوة للمحبة، وكرنفال للصداقة، فلماذا تخبئ تلك البهجة تحت طبقات السواد القاتم ..؟! لابأس بالأنف الأفطس، لابأس، إذ ما وُضع في كفة أمام الأسنان الكاملة ناصعة البياض، أو أمام العينين الناعستين والبشرة التي فى لون الكاكاو، أخذ يحملق فيها حتى صاحت ..

-أووووه .. تُهت فين...؟

لملم عينيه وتلعثم

-ولا حاجة .. أنا هنا

-وأنا كمان هنا ..

قالت وهى تغمز بعينها

obeikan.com

- يا اللا بقى .. راضيني

مد حنا وجهه مستفسرًا ..

-أراضيكي ..؟!

حكت صباعي الإبهام والسبابة ببعضهما البعض

-فلوس .. آه .. راضيني

ينقبض قلب حنا، يشعر بالقرف والخجل معا، منها ومن نفسه، يدس يده في جيب البنطلون، ويفرغ كل ما فيه بين راحتيها، دون تدبر، بسرعة، وبطريقة حاول ألا تبدو مهينة، أو فجة، كمن يقول "هذا ثمنك" مثلاً .. بكل وقاحة.

في طريق عودته إلي الشقة، حينما كانت صفية تمشى وراءه، فكر فى الكيفية التى سيمد بها يده بالمال، إنه خجول، خجول جدًا، ولا يعرف كيف يدفعون في مثل تلك الحالات، فكر في أن يدسه، دون أن تراه، فى ملابسها ..

-إيه دة ..؟!

سألت وهى تلملم شفتيها لتضم الفكين المتمردين في بوز ضخم، بدا

obeikan.com

كورم غريب علي وجهها، وراحت تحك حواف الأوراق النقدية الخضراء بين الإبهام والسبابة، وترفعها في مواجهة الضوء، لتتبين علامة مائية تتوقعها ..

ثم قالت بريبة وهي تنظر له بقرف ..

-إيه لفلوس دي...؟

-دولارات

دولارات كثيرة، كان قد كسبها من عمله مع الأمريكان على الباخرة، نصيبه من البقشيش فى شهور العمل المضنى الماضية، مبلغ ضخم، ربما ما كانت واحدة، مثل صفية، تحلم أن تتقاضاه يومًا، فكم يأخذن عادة في مثل هذه الأمور..؟

-مية .. هات ميت جنيه

قالت وهي ترد له دولاراته، بلهجتها الصعيدية الحادة، لهجة واحدة من القرى المنسية فوق الجبال، مائة جنيه، يا للغباء، إنها تمسك بيدها ـ الآن ـ المئات والمئات من الجنيهات ..

تلعثم ..

obeikan.com

-لكن ...

قاطعته بلهجتها الحادة ..

-إسمع .. انا مش مرتاحة لك .. هات لفلوس

بدون كلام، أخرج حنا حافظته، وبحث عن ورقة فئة المائة جنيه، وما أن وجدها حتي أخرجها بسرعة وقدمها لها، امسكتها بيد، والدولارات باليد الأخـرى، وقلبت نظراتها عليهما معا، كأنما لتزنهما بميزان مجهول، ويبدو أن الورقة المصرية كانت الراجحة، إذ دستها سريعًا في سيالة الإسدال، ثم راحت تُقلب يدها القابضة على الدولارات وهي تتفحصهم بإستهانة...

-وسيب دول كمان ..؟

وألحقتهم بالمائة جنيه في سيالتها أيضًا..

شعر بأنه يتعرض لعملية إبتزاز، لم يهتم بما فقده من مال، ولا حتى بالأثار النفسية السيئة التي تقبض على صدره، كان يهتم ـ فقط ـ باللحظة الآتية، فما فات مات، الآن، هو لا يريدها أمامه، يشعر بأنه في ورطة، وعليه أن يتخلص منها، ليتها لم ترفع نقابها كاشفة عن وجهها

obeikan.com

الخفى، لقد صارت واحدة أخرى، غير التي توقعها في خياله، خياله الذي تشبع بكلاسيكيات القرن الثامن عشر، وبقصص العاهرات المنكسرات الحزينات الفقيرات المريضات، اللواتى يبعن أجسادهن من أجل لقمة أو مأوي أو دواء، لابأس، إنها تجربته الأولى، التي سيعى بعدها ـ بلا شك ـ أن المهنة تتطور، شأنها شأن كل المهن الأخرى ..

أخطأ حنا، حينما تصور إنها ترتدى ملابسها، تلك، خجلاً، علي غرار عاهرات ديستيوفسكى المنكسرات، أو حتى كما تفعل شحاذات أيامنا هذه فى المواصلات العامة، حيث يمكن للمرأة أن تتسول، بنقابها، دون أن تشعر بالخجل أو المرارة، وبوجه غير مكشوف، تمر صامتة بين مقاعد الباص أو المترو، وتلقي علي حجرك ورقة تقول "أنا أرملة وأنفق على ٩ أطفال" .. لا .. إنها ليست هكذا، إنما هى ترتدي تلك الملابس اقتناعًا، ببساطة، لأن الواجب الشرعي للمرأة نحو جسدها، أن تخفيه، درءً للفتن ..

عظيم .. ولكن كيف يستقيم هذا مع ما تفعله ..؟!

تمط بوزها العظيم وترفع كتفيها ..

-عادي

obeikan.com

هكذا قالت لمنصور ذات مرة ..

-عادي...؟!

سألها مستنكرًا ..

-كيف "عادي" يعنى ...؟

تقول ببساطة ..

إذا ارتكبت إثمًا، فهذا لا يبرر لك أن تقترف كل الأثام، لأنه لو قُدر لك أن تسقط فى الطين، فلن تغمر وجهك فيه أيضًا، وربنا غفور رحيم ..

-الله الله يا شيخة صفية

الخير ليس خيرًا كله، والشر ليس شرًا كله، هناك مستويات وطبقات، منها الأعلى، ومنها الأدنى، قالت صفية، أعص سيدك ولكن لا تهرب منه، ولا تكابر، فالعبد العاصى خير من العبد الهارب.

يا لها من حكمة ..!

إن ما بين إنسان وآخر من اختلاف، هو نفسه، ما بين حيوان وآخر ليس من فصيله، وهذا، فى حد ذاته، أمرًا ضروريًا، حتى تستمر الحياة، فصفية فى حكمتها، لاتختلف كثيرًا عن الدكتور دميان، بعكس ما يبدو

obeikan.com

لنا من خلاف، فكلاهما كان يتعامل مع السماء، كما لو كانت دكان بقالة، هى تعتقد أن لها حسابًا مفتوحًا، وتقدم الرحمة على العقاب، بينما يظن هو، الآخر، بدفتره الأصفر الصغير الذى يدون فيه خطاياه، أن هناك ملاكًا متفرغًا لإحصاء ذنوبه، يترصده كمخبر سرى، ويمسك بقلمه مدونًا على لوحه المحفوظ، لقد شتم فلانًا، فيكتب الدكتور دميان فى دفتره بالتاريخ، لقد شتمت فلانًا، لقد كذب، آه أنا كذاب، لقد قام بالإستمناء، حصل فعلًا، لأن زوجتى وأم عيالى ماتت، فأفلتت منى نظرة و ....

كلاهما واحد ..

obeikan.com

(٢)

- دى البلكونة ..!!

قال ـ كأنه يفجر مفاجأة ـ وهو يشير للشرفة

ردت ببرود

- آه .. بلكونة

قال ..

- علي النيل

نظرت له بحيرة ولم ترد .. فأستأنف :

- لسنين طويلة .. كانت مقفولة

- وفتحتها النهاردة ..؟!

obeikan.com

سألته .. فقال دون ان ينظر إليها

- آه

استلقت علي السرير دون أن تخلع إسدالها أو حذائها، بينما وقف هو عند باب الشرفة، كان متوترًا، يسيل على وجهه العرق، ولا يعرف ماذا يفعل ..

- طيب .. هات سيجارة

قالت وهى تتلفت بضيق نحو طبقات الغبار العالقة هنا وهناك ..

ثم تمتمت مستنكرة

- ومافيش غير اليوم الأغبر دة تفتحها فيه ...؟

أشعلت السيجارة بأعواد ثقاب أخرجتها من صدرها .. وسألت

-أنت ليه مش متجوز ...؟!

لم يعرف بماذا يجيبها، رفع كتفيه بحيرة، وظل ساكتًا، حيث بدا له السؤال نوعًا من التوبيخ، كأنها تنتقد أسباب قدومها إلي شقته، فقد كان عليه أن يتزوج، حتى لا يحتاج إلي أمثالها ..

obeikan.com

-عندك شقة

قالت وهي تفتح ذراعيها علي اتساعهما، كأنما لتحوى بهما الشقة كله، ثم طوتهما مرة أخرى فوق صدرها، وبدأت في تقليب نظراتها المتفحصة بين الأرض والسقف والحيطان بقرف قائلة ..

-صحيح زي الزريبة .. بس شقة

أراد أن يقول أن الشقة وحدها لا تكفى لأن تكون مبررا للزواج

ولكنها سبقته، حيث كانت تتكلم بسرعة فائقة، تطلق الأسئلة، دون أن يكون لديها رغبة في معرفة الإجابات، علي كل حال، لم يكن حنا يمتلك إجابات، كان سعيدًا بتجاوزها ردوده، إلا أن أسئلتها التي تحمل قدرًا من التأنيب، أشعرته بالصدمة أحيانًا.

قالت وهي تقلب راحتيها أمامها في الهواء

- شقة واسعة .. على البحر .. وعمارة كبيرة لها بواب ..!!

قال

-آه .. لكن أنا ...

قاطعته وهي تقطب حاجبيها، مضيقة ـ لأقصي حد ـ من حدقتى عينيها،

opeikan.com

كأنها تخاطب كائنًا صغيرًا جدًا، لايمكن أن تراه بعيون مفتوحة ..

- إنت ليه غريب ..؟

-أنا ..؟!

-آه .. أنت

فلم يعرف ماذا يقول وتلعثم ..

- آآآآ

-والكتب .. ؟!

سألت وهي تعيد فرد ذراعيها علي اتساعهما مرة أخرى ..

-الشقة كلها كتب ..!

قال وهو يرفع كتفيه بحيرة

-كتبي ..!!

سألته :

-أنت عارف فين أنا وأمى وأخواتى عايشين .. ؟!

قال :

obeikan.com

-لا

فقالت :

-طيب .. اخلع هدومك

ثم راحت تتأمله وهى تدخن ..

بدا كحيوان غريب، حيوان متوتر محبوس في قفص، يتخبط في الفراغ بخجله، ويتصرف كأنه مجنون، بص، إنه يخلع بلوفره الرصاصى المقيح، بالضبط كأنه مجنون، يتطوح يمينًا ويسارًا، وينهج، يعافر لإخراج رأسه من رقبة البلوفر الضيقة، كقرموط وقع فى شبكة، يشد البلوفر لفوق، فيبدو ـ وهو يخلعه ـ كأنه سينتزع الرأس أيضًا، تحبس ضحكتها، ولكنها لا تملك إلا أن تطلقها، بعد أن ترى رأسه محررًا، استغرق الأمر دقيقة واحدة، ولكنها كانت طويلة جدًا، خرج رأسه للدنيا، بعدها، بوجه أحمر، محتقن، وشعر منكوش ...

ضربت كفًا بكف وقالت ..

- الله يخرب بيتك يا منصور ..!!

بينما كان صوتها يختنق من فرط الضحك ...

ليس بالملابس وحدها يصير الإنسان إنسانًا، إنما بالضحك ايضًا، فالإنسان حيوان ضاحك، وحيوان مضحك أيضًا، وهو ينفرد بكلا الأمرين، الضحك والإضحاك وحده دون سواه، لأن الحيوانات الاخري لا تضحك طبعًا، ولا تضحكنا كذلك، إلا عندما تأتي سلوكًا إنسانيًا، او ما يشبهه.

راحت تضحك ...

ولم يمنع انهماكها في هذا السلوك، الإنسانى البحت، خيط رفيع من نور الذاكرة، أن ينبثق، ثم يمر أمام مخيلتها كشريط سينمائى، رأت، وهي لاتزال تضحك، أمها تكسر كوز زير السبيل، لأن نصرانى عابر شرب منه، قبل أن تستدير - ببطء - وتقذف بشقاف الكوز المسكور قائلة إن رائحتهم عفنة، وتستطرد، هؤلاء النصارى، إنهم لا يستحمون، حتى بعد أن يجامعوا نساءهم ...

- كيف ستبدو رائحته ..؟!

سألت نفسها، قبل أن تبتر ضحكتها علي نحو مفاجئ، بأن دستها داخل بوزها الضخم، وضمته عليها جيدًا، فتخيل حنا إنها ستطلب كوب ماء لتبتعلها، كان ينظر لها، بوجهه المحتقن الأحمر وشعره المنكوش،

في خجل ودهشة، ويفكر فى سؤالها عما يضحكها، ولكنه وجد نفسه يجاريها مبتسمًا، علي اعتبار أن ضحكها لفتة طيبة، يمكنها أن تفتح مجالاً للتلاقى، الذى من شأنه أن يخلق جوًا مناسبًا لتوليد الرغبة الغائبة بعد الحوار العجيب الذي دار بينهما، حيث كانت تنتابه عدة مشاعر متضاربة، القرف والرهبة والترقب والغضب والخجل، مع المزيد من تأنيب الضمير، أوربما الندم، فضلاً عن الوهن الذي توغل في عظامه، والنمل الذي يسري في ساقه المصاب، والتشنج الذي يفتك بعضلات ساقه الأخر، وكان يتحسس وجهه ـ من حين إلي حين ـ ضاغطًا بإصبعه في مكامن ارتعاش عضلاته، كأنه يرجوه الثبات أو يتوسل إليه ألا يفضحه، خاصة تلك المنطقة اللعينة، أسفل العينين، التي بدا إنه فقد السيطرة عليها تمامًا، وبالرغم من ذلك كله، راح يعتصر ذاكرته، في محاولة مستميتة، لإستخلاص مشهدًا قريبًا أو بعيدًا، يذكى به بصيص الإثارة الذي بدأ يخفت في داخله.

حالته، تلك، التي تمكنت صفية من أن تكشفها وهى فى مكانها علي السرير، جعلتها تبدو كطاغية، بصرف النظر عمن سيعتلي من، كانت، بظهرها المنتصب على الوسادة، وساقاها الممددان بإسترخاء

علي الفراش، تمسك بزمام الأمور، تزفر دخان السيجارة من أنفها الأفطس، ثم تنهمك في تأمله، وهو يتلاشى، كحلقات واهية يمتصها الهواء، كأن حنا، الذي يرتعش أمامها، لا يعنيها، رغم إنه ـ أيضًا ـ كان يتلاشى، مثل دخان السيجارة، في العدم.

ولكن، هذا لن يدوم طويلًا، فكما يقولون، دوام الحال من المحال، حيث بدأت صفية تشعر بشيء ما، غير طغيانها، أو ربما شعرت به، بسبب طغيانها، إذ انتابتها رغبة عارمة في أن تتشمم حنا، الذى كان قد خلع قميصه أيضًا، ودت أن تدفن أنفها الأفطس في ثنايا لحمه، وتنشقه نشقًا يعبئه ـ بكامله ـ في داخلها، شعرت بذلك وهى تفسح لجسمها مجالاً ليلتقط الشرر، الذي سرعان ما تحول إلي جذوة صغيرة بللت ما بين ساقيها بماء دافئ.

نهضت، فجأة، وخلعت إسدالها، نزعته، مرة واحدة، من عند رأسها، فأندهش حنا من حجم النقلة التي لم تستغرق إلا لحظة، لحظة واحدة، تمكنت صفية من خلالها أن تبدل عالم بعالم، وثقافة بثقافة، كأن بأمكانها أن تسيح عبر التاريخ، وتختصر مراحل تطوره، التي تعتبر الملابس أهم معالمها، في لحظة، وقف مشدوهًا وهو ينظر إلى صفية

أخرى، أو ربما هي صفية نفسها، لكن بعد خروجها من آلة الزمن، ببنطلون جينز ضيق جدًا، وتي شيرت ـ مطبوع عليه برج أيفيل ـ بلا أكمام.

أججت هذه النقلة النار بداخله، حتي بدأ الدم يغلي في عروقه، واندفع مرة واحدة فى الشرايين إلى ما بين ساقيه، فجعل الكتلة الرخوة الراكدة بينهما تنبض، نبضات سريعة متسقة مع ضربات قلبه، قبل أن ينتصب ـ فجأة ـ ويتصلب، حتى كاد أن يخرق البنطلون.

أقترب خطوتين، فأقتربت مثله، كانا ينظران لبعضهما البعض، كأنما سيفترس الواحد منهما الأخر، عندما تجمدت خطواتهما ـ فجأة ـ علي صوت صراخ يأتى من عند الباب، باب الشقة، الذى راح يرتج بقوة، حتى أوشك أن ينخلع، تحت القبضات المجهولة .

(٣)

تخيل إنه يحدث لك ..

أن تسمع خبطًا عنيفًا علي بابك، وأصوات تصرخ ..

أفتح .. أفتح

فتفتح، لأنك لا تملك خيارًا أخر، خصوصًا، مع هذا العنف، غير المبرر، حيال الباب، الذي يوحي بأن القصد، أساسًا، هو تحطيمه، أو تحطيمك، أنت، من الداخل، فلا فرق، أنت هو، وهو أنت، نعم، فلا يمكن أن تنفصل عن مقومات وجودك، باب الفلك الذي تحتمى وراءه من الطوفان، الباب الذي تكون وراءه موجود، وقدامه ضائع ..

تفتح، فيندفعون إلي جوف الفلك، ويداهمون خطيتك الأولى ...

obeikan.com

البارمان المسيحي مع العاهرة المتدينة ...!

فضيحة ..

ولكن من هم هؤلاء...؟

هؤلاء اللذين جاءوا - بجمع كبير - كأنما ليقبضوا على لص، رغم إنك كنت معهم كل يوم، ولم يمدوا علي بابك الأيادى، ولكن - كما هو مكتوب - هذه ساعتهم...

هؤلاء...؟!

أنت تعرفهم، أو علي الأقل، تعرف بعضهم ..

نعم ..

دقق في صرخاتهم الغاضبة قليلاً ..

أليست، هذه، صرخة سعاد، الرفيعة الممطوطة، الأكثر حزنًا وفُجرًا وعُلوًا، تلك الصرخة التي تعبر عن قهرها، أكثر مما ترغب في قهرك، هي سعاد، نفسها، البنت التى رأيت شبقها البكر، هنا، فوق السطوح، في لحظات لا يصح أن يراها ثالث، يا للخسارة، آه لو تكلمت حيطان العمارة..!

obeikan.com

- كان بيتسحب كأنه حرامى

يأتيك صوتها ..

-ومن خوفه .. وقع من على السلم

ثم ينطلق صوت صارخ لرجل موتور

-السافل .. حرامى الغسيل

قبل أن يرج الباب رجًا بقبضته الغليظة

-أفتح .. أفتح

صوته تغير، بلا شك، فالأصوات تتغير، حسب الحالة المزاجية، فمن يصدق أن هذا هو صوته، الصوت نفسه، الذى سمعته، قبل ساعات، هادئًا وخجولًا، يطلب كيلوت زوجته الذي طيرته الرياح ...

-حرامي الغسيل ..!

يا له من وصف حقود ...

إلا إنه يهون، أمام تلك النداءات المرعبة، التي بدأت تتصاعد، فحتى هذه اللحظة، لم يتخيل حنا أن الطابق قد امتلأ - عن أخره - بالناس،

obeikan.com

سكان العمارة، والعمارات المجاورة، وصبيان البازارات، بالإضافة إلي العابرين، ممن تصادف مرورهم أمام العمارة، وقتئذ، فجاءوا ليتفرجوا، إن فتح الباب ـ في هذه الأجواء ـ مغامرة غير محسوب عواقبها، فثمة رائحة مشؤومة، هستيرية ومجنونة، تنبع فيما وراء الباب، بدأت تفوح مع فحيح هذا الرجل الذي تخيله برأس حية سوداء "ها ابتعدوا عن طريقى .. افسحوا" كان يقول ذلك، الذي يوحى بكثرتهم، بلا شك، وهو يتراجع إلى الخلف، ربما حتي يلامس ظهره الجدار، او باب الشقة المقابلة، قبل أن ينطلق كالقذيفة بكتفه صوب الباب، والباب ضعيف، وقلب حنا أضعف...

-الخمورجى الكافر

كان يصرخ ..

-النصرانى .. منتهك الأعراض

عندها ارتدى حنا قميصه .. وفتح الباب .

(٤)

في يومنا الأغبر هذا، استيقظ الأسقف علي حلم مزعج، إذ رأى ـ في منامه ـ أن الكنيسة تحترق، حلم مزعج، صحيح، إلا إنه ـ أبدًا ـ لم يغير من سلامه الداخلى، فمن واجبه، كرجل دين، أن يتمسك بتلك الطمأنينة، التي تعد واحدة من مقومات وظيفته الخطيرة، بالإضافة إلي إنه كان يكره أن يضفى علي أحلامه صبغة النبوءة، ولذلك، لم ينتبه إلى فأل الشؤم الذي لاح في الأفق مع ثورة الغبار، فضلاً عن إنه كان يعرف أسباب تلك الأحلام المفزعة، والكوابيس ..

أسقف مدينتنا، الذي بلغ الخمسين منذ عدة شهور، بدأ يفكر في أمور جديدة، لم تكن ضمن قائمة حياته التي لا تتغير، أمور كان يزداد مقدار وطأتها علي روحه شيئًا فشيئًا، لدرجة جعلتها تتسرب إلي منامه

أخيرًا، جاءته تلك الحالة، التي يسمح طابعها الفجائى أن نصفها بهذا الوصف، ما بين منتصف ليلة وضحاها، كان قد غلبه النوم، وقتئذ، وهو يقرأ في كتاب "البستان" الجامع لأحوال الرهبان، ساعتها، لم يتمكن من امساك دموعه وهو يقرأ ...

-أين أنا من هؤلاء الآن...؟!

سأل نفسه معاتبًا، إذ شعر - فجأة - بأنه أضاع حياته، ليس لأنه ترهب، منذ عشرين عامًا، بل لأنه، بحسب رهبانية كتاب البستان، لم يكن قد ترهب من الأصل، الأمر لا يبدو لغزًا، إذ ما استعرضنا حياة الأسقف، منذ قبل ترهبه في منتصف الثمانينات، وقد كان وقتها علي مشارف الثلاثين من عمره، إلي أن صار الأن أسقفًا، ولكننا لن نفعل، بل سنتركه - هو - يستعرضها كيفما يشاء، حياته، تلك التي بدت كأنها لأحد غيره، في مرورها أمامه، الليلة، قبل ان يغفو فوق الكتاب، ويحلم .

في مجتمع القبيلة، كان العراف زعيمًا، ليس لما له من شعبية، إنما لقدرته السحرية التي تمكنه من القيام بعدة ادوار، لا غنى للجماعة عنها، فهو خليط من الكاهن والفنان، العالم والفيلسوف، الطبيب والقاضى، ولكن قُدر لتلك الوظيفة الخطيرة أن تتفكك، وأن يختفى

العراف من حياتنا، لأن الدنيا - ببساطة - تتطور، إلا في مدينتنا الصغيرة، التي يجب أن نعترف بأنها مدينة غريبة، مثلها مثل كل المدن التى يُسمي أهلها النهر بحرًا، ولابد من بعض الوقت، كي يدرك المرء لماذا تختلف هذه المدينة، وشبيهاتها، عن باقي المدن الأخرى في العالم، إذ كيف يمكن أن نصور للقارئ، فى القرن الواحد والعشرين، مدينة لاتزال تحت سطوة العرافين، حيث لايمكن لأحد أن يستخلص حقه، إلا بأحكامهم العرفية، التي تعتبر قاطعة، ربما أكثر من أحكام القضاء، وكان لابد أن يجد هذا النظام دعمًا، لاسيما من الحكومة، التى طالما كان بوسعها أن تتفاهم مع شخصًا واحدًا، فسيكون من الغباء أن تلقي بنفسها في بحر الجموع، بالأخص في أيام الإنتخابات، وعلى ذلك، تحول الصعيد إلي قائمة طويلة من القبائل، التي لا تختلف، مع بعضها البعض، بشكل حقيقى، إلا في الاسم .

ولكن، ثمة واحد من العرافين، لم يكن يعجبه دوره، الذي دفع إليه دفعًا، فما كانت هذه هي وجهته، أبدًا، يوم أن قرر ترك هذا العالم لأهله، مبتغيًا له عالمًا آخر، عالم تبدأ حدوده عند أعتاب الوصية، أذهب وبع كل املاكك وتعال أتبعنى، فباع، هذا الذى لا يهمنا أسمه،

صيدلية كان يملكها في احدي المدن الساحيلية، قبل أن يتنازل عن أسمه المجهول أيضًا، ويذهب للحاق بركب كارهي هذه الدنيا، هؤلاء الذين تبدأ حياتهم، بمثل ما تنتهى به حياتنا، صلاة الموتى .

إذن، لقد ترهب، حقًا وصدقًا، غير إنه لم يلبث إلا عامًا أو بعض عام، حيث تصادف أن يكون كرسى الأسقف في مدينتنا شاغرًا، فأختاروه، وكان عليه، بدلاً من أن يدير صيدلية واحدة، أن يدير أثنتين، غير المستشفي والمدرسة ودار المسنين وملجأ الأيتام، بالإضافة إلي بعض الورش والمصانع الإنتاجية الصغيرة، وفوق كل ذلك، واحد وخمسون ألفًا من المسيحيين، يتعلقون برقبته، بإعتباره أباهم، فلا أحد غيره يرعى حياتهم، بكل تفاصيلها، منذ دخولهم إلي الدنيا، وحتى رحيلهم عنها، فقد بدا أن الدولة ـ نفسها ـ قد نسيتهم، أو اعتبرتهم جالية من غير المواطنين، ممن يجب اختصارهم في شخصه، واعتبرت قضاياهم ـ علي بساطتها ـ ضمن قضايا أمنها القومي، فالنزاع الذى ينشأ بين الواحد منهم وجاره المسلم، ولو حتى علي نظافة مدخل العمارة التي تجمعهما، يحقق فيه أعتي أجهزتها الأستخباراتية، أمن الدولة، الجهاز الذى همس واحد من ضباطه ـ يومًا ـ فى أذن الأسقف ..

- الإنتخابات علي الأبواب ..

فعرف الأسقف أن ترميم سقف الكنيسة، الذي أوشك علي السقوط فوق رؤوس المصليين، مرهون بتأييد رجال الحكومة، تأييدًا يبلغ في مداه حد الإشادة بهم فى العظات، بالإضافة إلي إنه لا ينسي كم الخدمات التي يقدمها له هذا الجهاز، ألم يتعقب الأشقياء الذين يفرضون الإتاوات علي أبنائه من الصيادلة المسيحيين، ألم يعد له الفتاة، ذات الأربعة عشر عامًا، التي قيل إنها اختطفت وأشهرت إسلامها علي يد الجماعات المتطرفة، إذن عليه أن يكون شاكرًا، وألا يحسب إنه حصل لأبنائه علي حقوقهم، إذ هي محض خدمات، عليه أن يسدد أثمانها.

في نهاية يوم طويل، باهت وكئيب، بدأ برياح مغبرة وحلم مزعج، ينبغي أن تشكر الرب أمام فراش النوم كثيرًا، قبل أن تطلق آآآآه عميقة في زفير طويل يطرد من صدرك كل الهموم، فهذه دنيا شريرة، كلها مشاكل ووجع قلب، وأحمق من لا يبحث فيها عن خلاص نفسه، قبل أن ينهمر الطوفان.

هكذا، دخل الأسقف إلى بيت خلوته، وغلق عليه أبوابه، وراح يحل عقدة القلنسوة، تلك التى استعارتها الرهبنة من ملابس الأطفال، إذ كان

رباطها حول عنقه يحزعلى تفاحة آدم البارزة، كان قد أوشك على أن يُنهى يومه بسلام، حيث بدأ في قراءة المزامير، كعادته، قبل أن يستودع لدي الرب روحه وينام، حينما سمع أحدهم يطرق باب غرفته، وهذا الأمر يضايقه جدًا، فلا شئ أبدًا، في الدنيا كلها، يستدعى قطع خلوته ..

خرج وهو مستاء ..

- خير ..؟

-الناس في الشارع نازلة ضرب في شاب مسيحي

- والسبب ..؟

- مسكوه مع واحدة مسلمة في بيته

شعر الأسقف بالغضب، ليس من الخبر العاجل الذي استدعى خروجه، بل من هذا الفم اللاهث الذي ألتقطه منه، الفم الذي يتكلم بسرعة توحى بالخطورة، بالرغم من إنه لم ينطق إلا بالعبث، أمن اجل هذا الهراء يقطعون عليه خلوته ..؟!

صرخ:

obeikan.com

- وما لي أنا بالموضوع ..؟

اتسع الفم بدهشة ـ للحظة ـ ثم ضاق مهمهمًا

- يا سيدنا .. همة .. يمكن .. قالوا .. يقتلوه

ويبدو أن الأسقف لم يسمعه، لأنه صفق الباب في وجهه، ودخل ..

obeikan.com

obeikan.com

الجلجثة

obeikan.com

(١)

حينما ينتهى هذا اليوم، ولن يطول ذلك، لأنه ـ كما نرى ـ في ساعاته الأخيرة، سيجد حنا نفسه مكومًا علي أرض قاسية، سوداء ورطبة، وسيبدو ـ لمن يراه ـ إنه ميت، لولا تنفسه غير المنتظم وتعبير الإنهاك اللانهائي فى عينيه، على كل حال، لن يتمكن أحد من رؤيته، فلم يكن هناك غيره، لذلك لم يجد من يسأله عما إذا كان في حلم، مثل باقي أحلامه الكابوسية الثقيلة التي يدونها في قصص، أم هو في واقع لن يتمكن من كتابته مطلقًا، هكذا، اضطر لأن يطرح السؤال علي نفسه، فور أن فتح عيناه علي الأرض السوداء، التي بدت له ـ للوهلة الأولي ـ كأنها إسفلت، غير إنها لم تكن إلا خرسانة متسخة بالوحل.

النور الرمادى الواهن الواقف على حافة الكوة الضيقة فى أعلى

obeikan.com

الحائط، كأنما ليتشاور مع نفسه قبل الدخول، أخبره بأن الفجر قريب، ففرح، وقام في الحال ليعتدل مرتكزًا علي ذراعيه، إلا إنهما خاناه، فسقط علي وجهه، من جديد، وهو يعوى من الألم، كان أكثر ما يؤلمه هو فكه الأيسر، الذى يتذكر أنه تلقي عليه لكمة قاسية، فور أن فتح الباب، كانت الأشد من بين اللكمات التى نالها فيما بعد، ممن كانت اللكمة، لا يعرف، ولكنه يتذكر إنها طرحته أرضًا، ثم تبعها الركلات التى يتناسب تأثيرها مع حجم ونوع حذاء صاحبها، فقد كانوا كثيرين، ولم يدخلوا معًا مرة واحدة، بل علي دفعات، يدخلون تاركين الباب مفتوحًا، ليدخل غيرهم، وغيرهم، كثيرون ممن لا يعرفهم حنا قد دخلوا، فلم يعد يميز وجوههم ولا أصواتهم، لم يعد يميز إلا صوت البكاء المكتوم، الذي تطلقه صفية بنهنهة لاذعة، تخرج من قلب يحترق ..

-أنا كنت جاية أدور علي بيت خالي

أهئ أهئ أهئ

-هو اللي شدنى وقفل الباب

أهئ أهئ أهئ

لم يصدقها أحد، طبعًا، فمن يمكنه أن يصدق هذا، لفت كذبها نظر أحدهم، فتوجه إليها مغتاظًا، وبحركة خاطفة رفع إسدالها الفضفاض، الذى لبسته على عجل قبل أن يفتح حنا الباب، نظر الرجل إلي البنطلون الجينز الضيق، الذي ظل فى مكانه ولم يمس، ثم هوي بكفه علي وجهها وهو يبصق صارخًا ..

-يا شرموطة

إنه دائمًا شئ مثير، أن ينكشف كذب خصومك، وأنت صامت، حتى ولو كنت في وضع، لا يؤثر كذبهم أو صدقهم فيه كثيرًا، لذلك شعر حنا بأرتياح فور سماعه لصرختها المعتادة ..

-يا خرابى

بصدق صرخت، هذه المرة، بما يعنى الخراب فعلًا، قبل أن تتهاوى من تأثير الصفعة، فتُحرك - بفعل إسدالها المتطاير - نسمة هواء منعشة، استقبلها حنا على وجهه العرقان، لحظة سقوطها إلي جواره علي البلاط.

لم يكن ثمة خراب أكثر من أن يرى بيته مستباحًا، لدرجة إنه كان علي

وشك أن يطلب من أحدهم غلق الباب، حينما جذبه من ياقة قميصه ودفعه خارجًا ناحية السلم، ثم راح يجره جرًا علي درجاته، لم يفكر حنا إلي أين سيأخذونه، بقدر ما تساءل عن جدوى ترك باب الشقة مفتوحًا، لكل من يفكر بالدخول، علي الرغم من رحيله، هو صاحبها، إلا إنه تبين مدى سخف تفكيره، وسكت، فها هم يخرجونه من بيته، بقميص مشقوق وعينين كالدم، مثل شاه مساقة للذبح، نحو شارع لا يعرف إلا الله ما ينتظره فيه، بينما هو يفكر في شقته وبابها المفتوح، يا لبؤس التفكير، كان عليه ـ بالأولى ـ أن يفكر في المتفرجين المنتظرين عند مدخل العمارة، هؤلاء اللذين لما تخيلهم، مرت عليه وجوه زملاء الباخرة، والمتر عاطف، وتساءل عما إذا كانوا من بينهم، باعتبار أن الباخرة ـ الراسية قدام العمارة ـ لم ترحل بعد، وفكر في إنهم ربما سينكرونه، فلن يجرؤ واحد منهم علي نطق اسمه، حتى لا يناله نفس العقاب، سيخبئون وجوههم ويقولون "إننا لا نعرف هذا الرجل" وسيكررون هذا ـ لو أمكن ـ ثلاث مرات، كان يبحث عن وجوههم، لير ماذا سيفعلون، ولكنه لم يجد إلا وجوهًا لا يعرفها، حمراء مكسوة بالغضب، تتمايل متأهبة بالعصى، وتطلق السباب كأنها تتنفس، وجوه

لم توطد فى داخله، إلا عظيم احتقاره لبنى البشر، فمباركة أنت، أيتها العاهرة، فى الجموع، ها قد صرت الآن أختًا للجميع، ينتفضون لشرف خُمار نقابك، مستبدلين أنفسهم بأخ حقيقى لم يتمكن ـ يومًا ـ من أن يلملم أفخاذك المتناثرة على الأرصفة، فطوبى لك، أيتها الجاهلة، لأن بك تكتمل النبوءات.

عند مدخل العمارة، وجد سعاد، هذه التى سلمته، واقفة تبكى بحرقة، لقد كانت تحسن الظن في رحمة النار، لما أطلقت شرارتها الأولي، معذورة، فمن كان يتصورهذا، إنها تكتوى ـ الآن ـ بلهيب ندمها، ولكنها لم تفكر بعد في حبل يهوذا، بل اندفعت ـ حينما رأته ـ كلبوة مفترسة، صفعت الرجل الذي يمسك بياقته صفعةً مدويةً، وحاولت بقواها الخائرة أن تخلص حنا من قبضته، وهي تشب علي أطراف أصابعها، حتي تلتقط أذنه بين أسنانها، إلا أن الرجل، لم يمكنها من أن تفعل، فتراجعت يائسة، وراحت تسبه ..

-يا ابن الكلب ..

يبدو إنها لم تكن تقصد هذه النهاية، ولا كل هؤلاء ـ أيضًا ـ يقصدون، إنهم ـ حتى ـ لا يعرفون ماذا يفعلون، فلم يكن الواحد يتصرف وفق

رأسـه، بل يتصرفون جميعًا وفق رأس واحـد، رأس شيطانى يلغى رؤوسهم، ويختصرها جميعًا في ذاته الشريرة، فبين كل هذه الجموع، لا مكان للتفكير المفرد المتمهل، بل للإنسياق الأعمى وراء القطيع، حيث يتحول الإنسان إلي ما دونـه، شيئًا فشيئًا، إلي أن يُستبدل في النهاية بمسخ فظيع.

ولـكن، واحـد منهم، أبـى أن يكون مسخًا، وحـاول أن يسترد عقله المسلوب، فانطلق يصرخ فيهم ..

- يا جماعة .. يا جماعة

لم يكن يعرف أن رأس الجماعة بلا آذان، وأن صوته لن يُسمع وسط كل هذا الضجيج ..

- يا ناس .. كفاية

ولكنه وجد - أخيرًا - من يسمعه، فما كاد يُكمل النداء، حتى فوجئ بدفعة قوية، جعلته يطير لينتهى إلى حيث يكون خارج الجموع ..

- أستح ..

قال الذى دفعه لائمًا ..

- أفترض إنها أمك ..

وسكت لحظة .. قبل أن يسأل منفعلاً ..

- أترضى أن يدنسها نصراني كافر ..؟!

obeikan.com

(٢)

سيارة ماركة تيوتا، بلون أزرق داكن، مُجهزة ـ في الأصل ـ للنقل الخفيف، إلا أن الصندوق الحديدي الذي ركبوه لها في المؤخرة، حولها لسيارة شرطة، ظهرت فجأة، كأن السماء أنشقت وأنزلتها، هكذا، وُجدت واقفة بعرض الشارع، وعلي الرغم من ضيق صندوقها، إلا إنه سرعان ما أخرج من جوفه عشرين جنديًا، يقفزون قفزًا، بخوذات ودروع، نصفهم، علي الأقل، يحملون البنادق الآلية، التي راحت رصاصاتها تنهمر فوق الرؤوس، بصوت هادر، بينما انهمك النصف الأخر في الجرى وراء الجموع بالعصى الغليظة، فبدوا جميعًا كأنهم أغنام تتشتت، ولم يستغرق الأمر إلا عشر دقائق، حتى صار شارع الكورنيش واسعًا ومهجورًا، وسكن الهواء تمامًا، فما عاد يحمل إلا

obeikan.com

لُهاث العساكر، وهؤلاء، إذ لم يجدوا ما يفعلونه في هذه اللحظة، راحوا يتلفتون في الخلاء منبهرين بما صنعوا، قبل أن تقع عيونهم على حنا، الذى لم يسعفه جسمه المنهك علي الركض، فأنكفأ بوجهه منبطحًا علي الأرض، وكان قد ذرف للتو آخر دمعة من دموعه الحقيقية، دموع الآسى المُرة، التي سبق أن ذاق مرارتها آدم المطرود، وهو يخطو خطوته الأولي فوق العتبة الفاصلة بين الجنة والأرض، كان يأمل في الصعود إلي بيته، فحسب، حينما ينتهى هذا اليوم المشؤوم، ساعتها، سيغلق بابه عليه، ولن يفتحه أبدًا.

- أنت حنا ..؟

سأله أحدهم .. فهز رأسه ..

- أنا هو

حملوه، وألقوا به في صندوق السيارة، كان مثل كيسًا من القطن بين أياديهم، إلا أن القطن لن يتألم عند سقوطه على الحديد، أو يصرخ من عمق أعماقه، كما فعل حنا، عندما قذفوه داخل الصندوق، قبل أن ينحشروا جميعًا فوقه بأحذيتهم الثقيلة، وتنطلق السيارة بصوت سارينة انذارها الفاضح.

قسم الشرطة ليس بعيدًا، إنه في منتصف الطريق، بين عمارة الخبراء ودكان منصور، كان حنا يمر من أمامه كثيرًا، علي سبيل المثال، مر اليوم أمامه مرتين، مرة وهو يحجل بساقه المصاب، للذهاب إلي الدكان، ومرة وهو يجرجر قدميه وراء صفية، للرجوع إلي الشقة، وإن أتيح لنا أن نحتسب، هذه، كمرة ثالثة، فيجب علينا أن نميزها بأمر هام، وهو، إنها المرة الأولى التي يدخل فيها من بابه الحديدي العتيق، فقد تصادف ألا يكون في حاجة إلى تلك البناية الكالحة، طوال سنوات حياته، لأنه ببساطة، لم يسبق له أن أشتكى أحدًا، ولم يسبق لأحد ـ كذلك ـ أن شكاه.

تركوه برفقة حارس، طويل جدًا وخطوته واسعة، مما جعل حنا يجرى ـ تقريبًا ـ حتى يجاريه، كانا يمران بجوار حجرة فى الطابق الأرضى، مكتوب فى يافطة نحاسية علي بابها، البلوكامين، عندما استوقفهما واحد، قصير وممتلئ، ولايزال شابًا، بعكس ما ظهر لحنا في الوهلة الأولى، كان يرتدى بدلة صوفية مخططة برباط عنق عريض، ويبدو إنه لبسها علي عجل، فسوستة البنطلون مفتوحة، وواحد من أزرار القميص مربوط في غير مكانه، بلا مقدمات، أقترب منهما وهو يلهث،

أخرج من جيبه علبة سجائر، قدم واحدة لحنا، وأخرج واحدة لنفسه، ثم مد يده بالعلبة كلها إلي الحارس، وبينما يشعل لحنا سيجارته، كان الحارس يحصى عدد السجائر بهزات صغيرة متتالية من رأسه ..

-سيجارتين .. ناقصة سيجارتين

قال الرجل السمين بوجه ممتعض، فرفع الحارس كفًا مبسوط الأصابع

-لا .. خمسة

-وأنا تأخرت عليك .. ؟

سأل الرجل مستنكرًا، فأجاب الحارس بلا روية :

-أنت ندل

وعندما حدجه الرجل بنظرة قاسية، بدأ الحارس يفسر هجومه

-من أسبوع .. فاكر .. ؟ مشيت على طول .. ولا حد شافك

وضع الرجل يده فى جيب البنطلون وأخرجها بورقة فئة عشر جنيهات، ثم قدمها للحارس، الذى بدوره رفعها إلى رأسه شاكرًا، ثم دسها في جيبه وهو يضحك، بأسنانه السوداء غير المنتظمة وبصوته الجهير

obeikan.com

قائلاً ببلاهة عززها طوله المفرط ..

-أنتم خواجات .. أخخخخخخ ..مع بعض .. أخخخخخخ .. أطلع أنا منها

وانصرف بخطوته الواسعة

كانا يتكلمان، وكأن حنا لا يقف فى المسافة الفاصلة بينهما، والحق، إنه كان فعلاً غير موجود، فقد ذهب مع السيجارة إلى بعيد، وراح يمتص دخانها بنهم، وهو يشعر بأنه لا يذهب إلي الرئة، بل يخترق الدماغ مباشرة ..

أشار الرجل برأسه إلي حيث اختفى الحارس وقال غاضبًا ..

-ولاد كلب .. لا يخدمونك إلا بـ .. (حك الإبهام والسبابة معًا)

ثم اقترب بوجهه حتى كاد يلامس وجه حنا ..

-أنا محام

قال مقدمًا نفسه، وحينما لاحظ عدم اكتراث حنا، قال إنه يعرف والده الدكتور دميان، زماااان، فى المرحلة الإبتدائية، كان يُدرس له الألحان في الكنيسة، وأضاف..

obeikan.com

-رجل عظيم .. ويحب الخدمة

وقال أيضًا، إن هذا مبررًا كافيًا للنزول من بيته، فى هذه الساعة، بعد سماعه للخبر، ثم راح يكلم شخصًا وهميًا وهو يقلب راحتيه وينظر إلى الفراغ، كأنه يمثل، للتأكيد على رد فعله المتعاطف ..

-حنا .. لا يمكن .. أبن الدكتور دميان .. لا .. يمكن واحد غيره .. ؟

عند هذا الحد، وبعد أن ألقى بعقب السيجارة بين قدميه، بدأ حنا يشعر بسخف كل ما يحدث حوله، وبالملل من هذا المعتوه الذى لا يعرف ماذا يريد منه بالضبط، لقد كان متعبًا، وقميصه مقطع، يقف حافيًا بعدما فقد حذائه، الذى لا يعرف أين أو متى اختفي بالتحديد ..

-أووووف

زفر من عمق أعماقه ..

فقال المحامى وهو يُضيق عينيه ..

-مسكين .. أنا حاسس بتعبك

ثم هرش فى شعر رأسه الخفيف قائلاً ..

- القضية فشنك

وراح يشرح له القضية، من وجهة نظره القانونية، قائلاً إنها ليست لها وجود من الأصل، فهو لم يضبط متلبسًا، وليس هناك قانونًا يمنعه من أن يستضيف كائنًا من كان في بيته، بل هو في الحقيقة المجنى عليه، وطلب منه أن يتمسك بذلك في أقوله بالنيابة، قائلاً إنه سيفرغ نفسه تمامًا لحضور التحقيق معه كمحام، وإنه إنما يفعل ذلك، فمن أجل رباط المعمودية الواحدة الذى يجمعهما ..

-الخطورة كلها هنا ..

وصنع من كفه المبسوط لحية تحت وجهه السمين هامسًا ..

-الجماعات .

obeikan.com

(٣)

في الطابق الثانى للقسم، أوقفوه أمام أحد الأبواب المغلقة، في طرقة طويلة، يتقرفص عند نهايتها حوالى اثنا عشر شخصًا، بنظرات ساهمة وجلابيب ممزقة، ولا أحد فيهم كان بإمكانه أن يمد يده ليهش الذباب الذى يستقر على عينيه، بدا منظرهم غريبًا، لأن الطرقة كانت طويلة بما يكفى ألا يتكدسوا فوق بعضهم البعض، هكذا، على العموم، كان حنا بعيدًا عنهم، فضلاً عن إنه في حال لا يسمح بالتفكير فيمن سواه، وهذا سببًا كافيًا حتى لا يكتشف سر ظهورهم ككومة من اللحم البشرى علي هذا النحو، لأنه لن يرى طرف الحبل القصير الرفيع، الذى بالكاد يظهر تحت مؤخرة أحدهم، ثم يُوجد ـ في موضع جديد ـ ملتفًا حول رقبة آخر، ويتجاوزه ليظهر حول ساق الرجل الثالث، كأنه

شجرة لبلاب صغيرة، كانوا جميعًا مربوطين في فرعها النامي.

لحسن الحظ، لم يلحظ حنا شجرة اللبلاب، هذه، وإلا لكان قد سقط مغشيًا عليه، على كل حال، كان لديه من القوة ما مكنه من الوقوف طويلًا، وطويلاً جدًا فى الحقيقة، لمدة تجاوزت ثلاث ساعات، وقف، هكذا، وحده، حيث بدا أن أمره لا يهم أحدًا، ولكنه شعر ـ أخيرًا ـ بالتعب، فراح ينسكب بالتدريج على الأرض، وهو يمسح بظهره الحائط، حتى لامست مؤخرته البلاط البارد، فشعر براحة ما بعدها راحة، خصوصًا، وهو يثني ركبتيه، شيئًا فشيئًا، حتى لامسا صدره، حينما أقتعد الأرض تمامًا، فلف حولهما ذراعيه، وأرخى فوقهما رأسه، وراح يفكر، إنه، بالرغم من كل شئ، يمكنه أن يستمتع، يمكنه أن يعيش اللحظة الآنية، بكل ما تحمله من مفارقات، وبأقل القليل، فى سعادة، فما عاد ـ الآن ـ يشعر بالمذلة، ولا بالألم أو العطش أو الخوف، بل حتى زنوخة فمه المحروم من السيجارة، لم يعد يحس بمرارتها الآكلة، كان رائقًا جدًا، لدرجة أنه استوقف نملة ـ من النوع الكبير ـ مرت بجانبه، وراح يداعبها صانعًا بكفه حاجزًا يقطع مسارها، حتى إذ ما غيرته النملة، عاد وقطع مسارها الجديد، كان على وشك الضحك، هذا الفعل الإنساني النبيل،

عندما أنفتح الباب أمامه فجأة ..

-بتعمل أيه ..؟

زعق الوجه الأحمر المتدفق بالعافية، ولم يرد حنا عليه، إلا بالنهوض من على الأرض، حتى صارا وجهًا لوجه، فكرر الرجل سؤله متكئًا على الحروف، وهو يهز رأسه بهدوء من يحاول السيطرة على نفسه ..

-بـ تـ عـ مل ..أيه ...؟

لم يرد حنا كذلك، لأنه ببساطة، وجد أن السؤال ثانويًا جدًا، ولا يعنى ـ في مجمله ـ شيئًا، بل ليس له صلة ـ من الأساس ـ بأسباب وجوده في هذا المكان، أشار له الرجل أن يقترب، فأقترب، أمسكه الرجل بياقة قميصه الذي تهرأ جدًا، وسأله بهمس في أذنه ..

- أنت أهبل ..؟

تسرب السؤال إلي داخله، فأحس بأنه فعلاً أهبل، إذ كيف يمكنه أن يصف نفسه، وهو على هذه الصورة، رجل ناضج منكسر حتى المذلة، بقدمين حافيتين وملابس ممزقة وملطخة ببقع الدم والوحل، لسانه أخرس لا يجد ما يتكلم به، خاطئ منبوذ من عيون الجميع، وأهبل يلعب

openkan.com

مع النمل على البلاط، في غير مبالاة بكل ما حوله.

كان هناك رجلان يتحدثان، عند الباب مباشرة، امتدت من بينهما يد وأمسكت بمعصم حنا، وأتضح ـ بعد ظهور صاحبها ـ إنها لشاب، ربما يصغر حنا ببضع سنوات، له شارب مهذب دقيق، قال ..

-تعال .. تعال

فتركه حنا يقوده، إلى أن أوقفه في المنتصف تمامًا، ولحظتها أدرك مدى الإتساع الذى تتميز به الحجرة، إلا إنها بدت، بالرغم من ذلك، ضيقة على المتواجدين فيها، فقد كان عددهم كبيرًا جدًا، ولأنه غير قادر على التركيز، لم يتمكن حنا من احصائه، كانوا يتجمعون أزواجًا، فيما عدا اثنين، واحد يجلس وراء المكتب الكبير، والأخر يجلس تحت النافذة، وكانوا يثيرون جميعًا شيئًا من الضوضاء، في حديثهم مع بعضهم البعض، ولكنهم سكتوا تمامًا فور دخوله، مما أربك حنا، الذى لا يحب أن يشعر بأنه مراقب، فقد كان يدرك أن نظراتهم عليه، أما هو فوقف منتظرًا، عيناه تنظران إلي الفراغ، نحو نقطة بعيدة عن عيونهم جميعًا.

-ها يا عريس ..

قال الرجل الجالس وراء المكتب مخاطبًا حنا ..

-ها .. أحكي

لا يعرف ماذا يحكي، لذلك، وقف صامتًا، فتطوع واحد يقف بجوار المكتب للشرح، كان ينظر إلي حنا من فوق لتحت، قبل أن يبدأ في هز خصره للأمام وللخلف، هزات عنيفة وسريعة، في إيحاء جنسي ملحوظ، قائلاً ..

-كانت ليلة حلوة ..؟

ضحكوا جميعًا، لا بسبب الأداء الماجن والمفتعل لزميلهم، في حد ذاته، ولكن لأنهم يدركون تمامًا بأنه يُمثل دور المهرج، لذا وجب التشجيع، حتى لا يظهر أمام نفسه كأحمق لا يبالي به أحد ..

-هيه .. ليلة حلوة .. مش كدة ..؟

زعق مكررًا سؤله، بعد أن كف عن هز خصره، ثم حل توكة حزامه، وسحبه مرة واحدة من البنطلون، وراح يلوح به في وجه حنا، على اعتبار إنه سيتحول إلى سوط، إذ ما أصر حنا على صمته ..

-ها .. أنطق ..

openkan.com

ولكن، بماذا ينطق ..

إنهم لم يسألوه سؤالاً مباشرًا، فماذا يقول ..؟!

هل يحكي لهم ـ مثلاً ـ عن كل ما حدث له اليوم ..؟

الإجازة المتعثرة، الكيلوت العجيب، المدرس وحسين، الدكان والأسد الذى يلتهم بني آدم، منصور وصفية، ثم الهجوم الهمجي، الضرب والإهانات والجرجرة في الشوارع، و ...

"هوذا أنا معكم الآن" ..

يقول في النهاية، وهو يفرد ذراعيه، على اتساعهما، في منتصف الحجرة ..

" أنا معكم .. ولا أعرف سببًا لذلك ..؟ فلماذا يحدث كل هذا ..؟"

ولكنه ـ في الحقيقة ـ لم يقل شيئًا مما فكر فيه ..

لقد ظل صامتًا ..

-الظاهر إنه مكسوف

قال أحدهم من خلفه، فمنع حنا نفسه من الإلتفات إليه، حتى لا يحسبوا

obeikan.com

تلك الحركة اعتراضًا، في الوقت نفسه، انحنى الجالس وراء المكتب، ليفتح درجًا من الأدراج، أخرج قطعة قماش من الصوف الأسود، وألقى بها إلي أقربهم إليه قائلاً ..

- كسوفه هايمشي لو ربطناها على عينيه

وقعت الخرقة السوداء علي كتف أحدهم، فألتقطها، وأقترب بهدوء وصمت من حنا، وراح يلف الخرقة حول عينيه، وحينما أحكم رباطها من الخلف بقوة، انسحب كل النور، فما عادتا عيناه يريان شيئًا إلا السواد ..

قال صوت بعيد ..

-أها .. كيف الحال ..؟

الحال إنه يحتاج لبعض الوقت، حتى يتأقلم مع هذا السواد، ولكنه بوغت بأحدهم، قام بسرعة من مكانه، فجأة، كأنما أغرته العُصابة السوداء، وانهال على وجه حنا صفعًا وهو يصرخ ..

-رد .. أنطق

وبما أن حنا لا يرى شيئًا، فإن الصدمة كانت أشد وقعًا من الألم، حيث

obeikan.com

شعر بأنه محاصر، ولا مجال أمامه للخلاص، وتخيل ـ ولا يعرف سببًا لذلك ـ إنهم سيتناوبون علي صفعه، ثم يطلبون منه أن يخمن، من هو الذى ضربه.

سأل صوت :

-بتشتغل أيه ..؟

وبمجرد أن سمع حنا السؤال، لوح بيديه أمـام وجهه منزعجًا، في محاولة تلقائية لتفادى صفعات وهمية، ثم هدأ حينما لم يجدها، وقال بصوت واهن ..

- بارمان

- أهاااا .. قلتلي .. بارمان

قال الجالس وراء المكتب ساخرًا، الذى، وإن كان حنا لا يراه، إلا إنه قد عرف نبرة صوته، وتمكن من تمييز ما بها من سخرية، بل تخيله وهو يجلس وراء المكتب مسترخيًا فى وضعية مائلة، وساقاه ممددتان إلي الأمام، والسيجارة بين شفتيه ..

-يعني بتشتغل في الخمرة ..؟

obeikan.com

سأل صوت فى بلاهة منقطعة النظير، فجاوبه حنا بالرغم من ذلك ..

-آه

نعم، هو يعمل في الخمور، ومن حُسن حظه، أن يكون كذلك، فالتحاقه بالعمل في هذه الشركة، جاء فى مصادفة سعيدة، لم يكن يقصدها، إنها ـ كما وصفها هو فى هذا اليوم ـ منحة من السماء، فهذه الشركة هي الوحيدة التي قبلته، بعد أن طاف حول عشرات الشركات يطرق الأبواب، قبلته بمجرد أن ترك لهم اسمه، فورًا، وبلا اختبار، أوشهادات خبرة، أو حتى وساطة من ذوي النفوذ، فلم يذهب إليهم إلا مجردًا، على اعتبار أن شهادة الفلسفة لا تعني شيئًا، فمن ـ في هذه الأيام ـ يمكنه أن يجد عملًا، بكل هذه السهولة.

في أول الأمر، لم يطلب عملاً في البار، كان يعرف أن هناك أعمالاً مكتبية يمكنه القيام بها، استقبال النزلاء الأجانب في المطار، على سبيل المثال، أو تفريغ رسائل الحجز من البريد الألكتروني، أو ارسال البريد الورقي واستقباله، ولكنهم كانوا يحتاجون بارمانًا، وليسوا في حاجة إلى هذه الخدمات، وعندما فر المدير طلبات التوظيف بين يديه، وجد عشرة يطلبون الوظيفة، أقلهم خبرة عمل بارمانًا في الشيراتون

لخمس سنوات، ثم وجد في الأخر طلب حنا الهزيل، فمد يده وألتقطه، قرأ الاسم و هز رأسه قبل أن يقدمه للسكرتيرة قائلاً ..

-حنا دميان .. هاتوه

وقبل أن تستدير السكرتيرة لتنصرف، قدم لها باقي الطلبات ..

-في صندوق الزبالة

كان يبتسم ابتسامة الرضى عن النفس، لقد صنع خيرًا كثيرًا، بحسب الفتوى التي أفتاها شيخه ليلة أمس، الليلة التي فاتت، بالتحديد، بعد أن قدم حنا أوراقه، يا كريم يا رب، لقد قال له الشيخ " الفندق الذى تديره يعمل في الخمور، وأنت مضطر لذلك، فهذا حال السياحة، رزقك وأكل عيشك، لا بأس، طالما لا تقدمها بنفسك، ولا تلمسها يداك، ولا تبيعها إلا للأجانب، وهم كفار، ولكن لا تستعين في هذا العمل بالمسلمين، فتكون ممن يدفعون المؤمن دفعًا إلى المعصية، لأنه يسقيها، وهذا حرام".

حقًا .. هذا حرام

-والله العظيم حرام

obeikan.com

هكذا كان يصرخ المتر عاطف، كلما وجد حنا عند الكوانتر، حرام، شباب كالورد، اختبرتهم بنفسي، رفضوهم جميعًا، ولصالح من ..؟ لصالح واحد لا يقبل التعليم، ولا يعرف الفرق بين الوسكي والواين، كأس الكوكتيل يقدم فيه بيرة، ومياه الشرب في فناجين الشاى، حرام.

-حراااام عليك

صرخ الذى تهتك ـ قبلاً ـ بهز الخصر ..

-هي البلد ناقصاك .. ؟

قال زاعقًا وهو يلوح بحزامه الجلد في الهواء ..

لم يعرفه حنا من الصوت، برغم شكه في الصفير الواهن الذى يصدره الهواء عندما يلوح بالحزام في فراغه، إنما تأكد من معرفته تمامًا حينما نزل الحزام نفسه على رأسه مرة، وكتفه مرة، وساقه مرة، ثلاث جلدات متتاليات، لاحقهن حنا بيديه المرتعشتين حيثما ذهبن فوق جسمه، فالحزام أعمى، وحنا كذلك، إذ لم يتمكن من صد واحدة منهن، قبل وقوعها، لأنه لا يرى، فكان يضغط على مكان الألم، قابضًا عليه بقوة، فقد كان موجعًا جدًا، لدرجة أنه أراد أن ينزع العصابة من

obeikan.com

عينيه، لا لشئ، إلا لرغبته الشديدة في أن يبكى، فربما خففت الدموع هذا الوجع الأعمى ..

-هنا .. في بلدنا .. الناس أنواع

قال صوت .. ثم سكت لحظة .. وأضاف :

-ولازم تعرف نوعك بحق وحقيق

واستطرد كأنه يلقي محاضرة :

-ينفع أن الكلب يحب قطة .. ؟ أو ينام معها ..؟

خاف حنا من أن يباغته الحزام، مرة أخرى، فلم يشأ أن يظل صامتًا، بالرغم من أنه لم يفهم - تمامًا - معنى السؤال ..

قال وهو يغالب وجعه :

-لا

-ولا أنت مسموح لك أن تبص لغير نوعك

قال الصوت .. ثم تخلى عن نبرته الهادئة وزعق فجأة ..

-البلد فيها نظام .. يا حيوان

obeikan.com

(٤)

تدفق الفجر من الكوة العالية، كينبوع ماء من الجنة، وأعلن ببريقه الفضى انتهاء يوم الشؤم، شأنه شأن كل الأيام، غمر النورُ الأرضَ القاسية الخرسانية السوداء الرطبة، فقام حنا من موته، كأنه يبعث من جديد، ووجد نفسه يفكر ـ دون مبررات ـ فى أبيه، لم يلومه لأنه جاء به إلي هذه الدنيا، بكل ما تحمله من آسى وشقاء، مثله مثل كل أب يأتى بولد، وقبل أن يعلمه فنون مواجهة الآلم، يتركه وحيدًا عند الصليب، يصرخ مناديًا بملئ صوته ..

-أبى أبى لماذا تركتنى .. ؟

ولا مجيب ..

وفجأة، خطر له خاطر، أن والده مات فعلًا، وهو يؤمن بأن أبنه قد

obeikan.com

رأى الملائكة، وربما كان يظن إنها ستحفظه، تحاوطه بأجنحتها، فلا يصطدم بحجر رجله، وأن يومًا سيأتى لتحمله بعيدًا بعيدًا، إلى جنة ليست من صنع الأرض، كجنة آدم، بل إلى جنة لن يطرد منها أبدًا، بابها ضيق، وأنهارها دموع، فمكانه ليس هاهنا، لقد عرف ليلة أمس، إنه كان حيًا بين أموات.

كان يسخر من الجميع بصمته، لأن أعظم ما يمكن أن يواجه به موتهم هو اللامبالاة، فليس ثمة لغة بين حى وميت، إلا الصمت، وهذا أيضًا، لن يفهم به الواحد منهما الآخر، حتى ولو أراد كل منهما ذلك.

انسكب النور الفضى في الزنزانة، متدفقًا من الكوة العالية، فغلف حيطانها ببهجة مفتعلة، هدهدت جسم حنا المهان، فنام كما نام صغيرًا، وهو يحلم بالملائكة، وفى داخله يقين، أن هذا هو وقتها، وإنها ستأتى برفيف أجنحتها، لتحمله إلي الجنة التى لا يموت فيها بنو آدم، ولا يطردوا، وما عليه الآن، إلا أن يخلع جسده المنهك، محررًا روحه من ردائها، كما كان يتحرر هو في شقته وحيدًا، إلا أن منظر روحه بدون الجسد لن يكون قبيحًا، كمنظره بدون ملابس فى المرآة، فالروح ليست لها خصيتين ولا قضيب ولا رغبة، وليست ثابتة على الأرض، إنما

تحلق كطائر أبيض، كما يتخيلها حنا الآن، تدور وتدور، كأنها تحوم حول الجسد الفارغ الذى لا يعنى شيئًا، جسده الثقيل الذى أنهكه هروبه من الدنيا بالنوم، حيث قضى نصف عمره تقريبًا، ينبش في ذاكرة روحه عن قصص حقيقية، ليست كتلك التى يصنعها العالم بواقعه السخيف، ولكن بعد اليوم لن يجعل بطل قصته ثعبانًا، ولن يجعلها كذلك تحترم التنوع الزائف لبنى آدم، فكلهم إنسان، يمتلكون روحًا واحدة، بيضاء ونقية، لم تشملها لعنة الرب على نسل كنعان، تلك التى سودت أبدانهم فحسب، لأن جدهم الأخرق رأى خصية أبيه النائم فضحك، يا لبؤس هذه الدنيا العمياء...!

من بين قضبان الكوة الضيقة، مرق عصفور صغير تائه، أغراه سكون حنا، الذى يناجى روحه وينتظر الملائكة، بالدخول، فوقف فوق كسرة خبز بجانب باب الزنزانة الحديد، وأخذ ينقرها بمنقاره، بدرت من حنا حركة، فطار العصفور، حلق حتى السقف وعاد، ثم راح ينقر كسرة الخبز مجددًا، هل يعرف إنه فى زنزانة، تساءل حنا، وهو ما بين النوم واليقظة، وكان صوت رفيف جناحى العصفور قد اختلط عليه، فهو فى ساعة كان ينتظر فيها رفيفًا آخر، لن يأتى طبعًا، لأن الملائكة لا تزور

الناس في الزنازين.

راح ينظر فى سكون إلـي العصفور بحقد، على الرغم من إنـه كان يتفاءل بمثل هذه العصافير الصغيرة، إلا أن رغبة غامضة، ولكنها ليست شريرة، تولدت في داخله فجأة، لما وجد العصفور ينقر كسرة الخبز أمامه بإطمئنان، حيث أراد، بوهج هذه الرغبة، أن يقتله، بحث بعينيه عما يُمَكنه من فعل ذلك، فلم يجد شيئًا، إلا أن جلاد ليلة أمس، الذى لاتزال جلداته الثلاث تلتهب نارًا على جسمه، ألهمه، فأستل هو الآخر حزامه، حزام بنطلونه الجينز السميك، كان العصفور صغيرًا جدًا، بحيث لم يتمكن من فهم هذه الحركة، وربما كان مطمئنًا لأن له جناحين، أو جائعًا بدرجة أكبر من كل المخاوف، فلم يكترث لحنا ولا لحركاته المريبة، حيث كان يضبط حزامه في يده، ويتربص للعصفور الغافل بدهاء، وكان يفكر فى مدى سرعة طيران العصفور إلي الكوة العالية، قياسًا بسرعة يده النازلة فوقه بالحزام، وفجأة انتفض، وبكل قوته نزل بحزامه على مكان العصفور، كيفما اتفق، إلا أن العصفور دائمًا الأسرع، خيل لحنا أنه سمع أنفاسه ودقات قلبه الصغير، وهو يطير بسرعة هاربًا من الكوة.

بلا شك، لقد هدأ العصفور وانتظمت دقات قلبه، حتى ولو لم يكن قد أكمل طعامه، حينما طار هاربًا من الكوة، ولكن حنا لم يهدأ، ولا حزامه كذلك، لقد ظل يلوح به في الفراغ، منصتًا لذلك الصفير الذى يتألم به الهواء، حتى الآن، ولا تظنوا أننى أقصد بتلك الآنية زمنًا محددًا، فاليوم الذى أكتب لكم فيه هذه القصة، يفصله عن اليوم المشؤم التى حدث فيه السنين، كنت خلالها أغيب عن المدينة كثيرًا، وأعود ـ أنا الآخر ـ في إجازة، لأجد حنا هو هو، لم يتغير، كأنما توقف الزمن ـ فجأة ـ أمامه ولم يمر، أو كأنه قد خرج للتو من زنزانته الكئيبة، بقدميه الحافيتين وقميصه المقطع، وزد على ذلك، بفعل السنوات التى مرت عليه، وعلى المدينة، كأنها لمح البصر، طبقات وطبقات من الوسخ على ذراعيه وقدميه ووجهه وشعره، وهذا الأخير قد صار ملبدًا بصورة غريبة، فلا يمكن أن يصفه المرء المنصف شعرًا، إن شاء الدقة، بل خصلات سميكة مضفورة بالوحل، بدت كأنها حيات تتنامى فوق رأسه الكبير، كنت أراه، على هذه الهيئة، يجرى بطول شارع الكورنيش ثم يعود، ليبدأ الكرة من جديدة، وهو يلوح بحزامه الجلد، ويصرخ بنفس الكلمات التى رددها أمامهم فى ذلك اليوم البعيد، حينما فتحوا عليه باب الزنزانة، فوجدوه يلهث صارخًا حتى الإختناق، وهو يلوح بحزامه،

أمـلاً في طـرد الأرواح الشريرة، التى لا يصح أن تأتى ملائكة فى حضرتها، نزعوا منه الحزام، وهددوه بالعصى، وربط أحدهم يديه من الخلف وهو يعاتبه مستنكرًا ..

-البلد مولعة .. وأنت عامل مجنون ..!!

فأخبرهم حنا بلهجة غاضبة، أن سماء تلك المدينة الملعونة، ستهطل على رؤوسهم مطرًا من العصافير الميتة، وإنهم سيموتون جميعًا تحت رائحتها النتنة.

فضحكوا ..

إذ لم يكن هناك مجالاً أمامهم حتى يشرحوا، كيف تسلل مجهولون بزجاجات المولوتوف، في تلك الليلة، وأحرقوا الكنيسة .

obeikan.com

المؤلف في سطور

هدرا جرجس

ولد فى ٧ يناير ١٩٨٠ بأسوان

- تخرج فى كلية الآداب قسم الصحافة سنة ٢٠٠٠ ويعمل صحفياً بمجلة الإذاعة والتليفزيون ورئيسا للقسم الثقافى بها
- عضو لجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة
- عضو نقابة الصحفيين
- عضو اتحاد الكتاب المصريين
- عضو لجان تحكيم جائزة الدولة التشجيعية (فى القصة ٢٠١٢ والرواية ٢٠١٣ و٢٠١٤)

الجوائز الأدبية

١- جائزة ساويرس فى الرواية لشباب المبدعين ٢٠٠٨

٢- جائزة الدولة التشجيعية فى الآداب فرع القصة القصيرة ٢٠١١

٣- جائزة دبى الثقافية فى الرواية ٢٠٠٥

obeikan.com

دراسات نقدية وأبحاث أكاديمية حول أعماله :

جدلية القدرة والعجز فى شخوص ذوى الاحتياجات الخاصة فى الرواية العربية ـ رسالة دكتوراه فى كلية الآداب جامعة القاهرة ـ قسم اللغة العربية ـ للباحث الأردني (وصفى محمد فارس الروسان ٢٠١٢) عن رواية (مواقيت التعري) ونماذج أخرى.

أعماله الأدبية :

١- مواقيت التعري ـ رواية ٢٠٠٧ و٢٠٠٩)

٢- بالضبط ..كان يشبه الصورة ـ قصص متتالية

٣- عصفور الجنة ـ حكاية للأطفال (كتاب قطر الندى ـ ٢٠١٣)

٤- صياد الملائكة ـ رواية

openkan.com

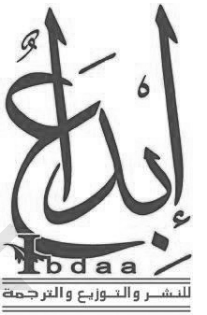

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com